اقليم ارتساخ او

حلاج

بين الماضي والحاضر

دار اسامة

دمشق - بيروت

Designed by graphic artis - Phone: (021) 44 56 78 - P.O.Box: 44 06 - Aleppo - Syria

اقليم ارتساخ او بين الماضي والحاضر

يطلب من مكتبة دار طلاس
حلب ــ مصطفى كزاره
عزيزية ــ شارع النهر
هاتف : ٢٤٨٨٠١

ليفون مكرد جيان

إقليم
أرتساخ أو غارا باغ
الماضي والحاضر

ترجمه عن الانكليزية
خالد جبيلي

مراجعة
عبد القادر عنداني

إقليم أرتساخ أو غاراباغ بين الماضي والحاضر

منذ منتصف شباط ١٩٨٨ ، أخذت وسائل الإعلام خارج الاتحاد السوفييتي تنقل أنباء حدث لم يسبق له مثيل في الاتحاد السوفييتي . فقد قرر الأرمن ، وهم يشكلون ٨٠٪ من سكان إقليم غاراباغ الجبلي ذو الحكم الذاتي ، وكذلك نواب مجلس السوفييت الإقليمي وهو أعلى هيئة حكومية فيه ، إثارة موضوع فصل الإقليم عن جمهورية أذربيجان فيما وراء القوقاز ، وضمه إلى جمهورية أرمينيا ، وفي جلسة خاصة عقدت في العشرين من شباط ، رفع مجلس السوفييت الإقليمي هذا المطلب بما يتمشى والدستور والقوانين المتعلقة بهذا الأمر .

في البداية كانت الدعوى الدستورية قد صيغت باقتضاب وبعبارات مركزة ومحددة تعبر عن الرغبة الجماعية لسكان الإقليم الأرمن في الانضمام إلى جمهورية أرمينيا . بيد أن هذا المطلب

المشروع لاقى رداً فظاً ومتعنتاً من السلطات العليا في موسكو . وما لبثت أن ظهرت مزيد من الأبحاث حول هذا الموضوع وأثيراكثر من جدال قانوني كانت كلها تؤكد على المبادئ المعروفة في المساواة بين الأمم وحق تقرير المصير مع ما ينجم من نتائج منطقية وسياسية .

لقد كان الحدث الآنف الذكر الذي اندلع في شباط حدثاً لم يسبق له مثيل . أي بعبارة أخرى لم تحدث حركة شعبية تلقائية وصادقة بهذا الزخم في الاتحاد السوفييتي خلال ٧٠ عاماً ، خاصة إذا وضعنا بعين الإعتبار المظاهرات الضخمة التي جرت في عاصمة الإقليم (ستيباناكرد) وعاصمة أرمينيا (يريفان) . بل يمكن التأكيد على أن هذه المظاهرات الضخمة بطبيعتها المنظمة والسلمية ، أصبحت مثالاً يحتذى بها بل وحافزاً للحركات التي أخذت تنتشر فيما بعد في الجمهوريات السوفييتية المتقدمة والناضجة سياسياً وفي بلدان أوروبا الوسطى التي كانت تدعى بالدول التابعة .

هذا الحدث ورغم عدم توقع حدوثه يمكن تعقبه في الماضي القريب . فخلال عام ١٩٨٧ أرسلت إلى موسكو مناشدة جماعية عليها توقيع ١٠٠,٠٠٠ أرمني تطالب بتوحيد الإقليم مع أرمينيا ، ووزعت هذه المناشدة على نطاق واسع بين الجهات الرسمية

والمنظمات الشعبية في موسكو وغيرها . ومن حين لآخر كان عدد من نواب الإقليم يقومون بزيارة موسكو لمتابعة تطورات القضية . وكان المسؤولون يؤكدون في كل مرة بانهم سيتوصلون إلى حل إيجابي للمشكلة . غير أن الرد السلبي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في منتصف شباط كان بمثابة مفاجأة للشعب الأرمني ، الأمر الذي أحدث شعوراً عميقاً بالسخط والاستياء في أوساط الشعب الأرمني .

وسرعان ما خرج الناس في ستيباناكرد في مظاهرات احتجاجية ازدادت حدة نتيجة قرار مجلس السوفييت الإقليمي المتخذ في العشرين من شباط والقاضي بانضمام الإقليم إلى أرمينيا . وكتعبير عن التضامن مع حركة إقليم غاراباغ نظمت مظاهرات حاشدة مماثلة في يريفان ، وأخذت هذه المظاهرات تكتسب بالتدريج زخماً ودعماً شعبياً واسعاً شملت مئات الألوف ، بل وبلغ عدد الذين احتشدوا من بقاع عديدة من البلاد للانضمام إلى المظاهرات مليون شخص . وفي أثناء هذه التحركات الشعبية الهائلة أرسلت موسكو أربعة من كبار المسؤولين إلى غاراباغ ويريفان يحملون معهم خططاً وتوصيات واقتراحات خاصة ، وفي غضون ذلك أذيعت رسالة من غورباتشوف حول هذه القضية لتهدئة سكان أرمينيا وأذربيجان ، وبعد هذه التطورات وفي الثامن

والعشرين من شباط حدثت أعمال عدائية إنتقامية ومجازر في أذربيجان ضد المدنيين الأرمن ، ونخص بالذكر الأحداث الرهيبة التي جرت في مدينة سومكاييت .

أما وسائل الإعلام السوفييتية ، وتمشياً مع أسلوبها التقليدي في التعبير والإعلام ، وبموجب مرسوم صادر عن السلطات العليا لم تنقل أنباء ما حدث في غاراباغ ويريفان بصورة صحيحة . ففي أفضل الأحوال كان المعلقون الصحفيون ينقلون معلومات محرفة كثيراً ما تكون غامضة مع محاولات تافهة للظهور بمظهر الحياد . كما أنه لم يكن يسمح للمراسلين الأجانب دخول المناطق التي حصلت فيها الأحداث ، ولهذا فقد نقلوا الأحداث اليومية الجارية في غاراباغ من مصادر ثانوية غير مباشرة ، وأبدت وسائل الإعلام وشبكات التلفزة الغربية وفي العالم بشكل عام حماساً متزايداً تجاه هذه الأحداث .

مهما يكن فإنه بغياب المعلومات النافعة والمناسبة والمتعلقة بالموضوع لم يكن بوسع الصحفيين الأجانب نقل الأحداث بصورة صحيحة وكافية ومستوفية ، الأمر الذي أدى إلى نقل صورة متناقضة ومتباينة عن الحقيقة وتحتاج مناقشتها إلى وقت وحيز لا يتسع المقام لهما هنا ، لكن ولأهداف توضيحية فإن الإشارة إلى عدد من هذه التناقضات يعد أمراً هاماً جداً .

كان المراسلون الأجانب يؤكدون في معظم الأحيان أن الأرمن مسيحيون وأن الأذربيجانيين مسلمون ، وبذلك أسهموا في نشر انطباع بان النزاع على الإقليم بين الشعبين ذو صفة دينية ، لكن الأمر في واقع الحال لم يكن كذلك . فالدين لم يكن يلعب دوراً هاماً في النزاع ، ولو كان له دوراً فهو ضئيل جداً وثانوي . وأخذ صحفيون آخرون يذكرون بأن الأذربيجانيين هم من أصل تركي دون التركيز على أهمية ذلك بدقة ، فيما ركز عدد آخر من الصحفيين على أن غاراباغ والقضايا المرتبطة بها والناجمة عنها ذات أهميـة حيـوية بالنسبـة للأرمن ، بمعنى أنها تتداخل بشكـل وثيق بموضوع بقاء القوم ، لذا فليس من الممكن المهادنة فيه . فضلاً عن ذلك فإن إقليم غاراباغ الذي يعد جزءاً هاماً من الهضبة الأرمنية عبر التاريخ ، قد سلخ وألحق اعتباطياً بجمهورية أخرى ، ولتحقيق العدالة لا بد من الإعتراف بأن إقليم غاراباغ وسكانه الأرمن هما جزءاً لا يتجـزأ من الوطن الأم أرمينيـا السـوفييتيـة . تلك هي الإعتبارات الأساسية التي تقوم عليها المطالب الأرمنية ، بغض النظر عن التكوين العرقي أو الولاء الديني للأذربيجانيين .

وقـد ذكر مـراراً وتكـراراً أن إقـليم غـاراباـغ يقع داخـل أذربيجان ، وهذا الكلام لا يبرر الحقيقة نظراً لأن هذا الإقليم كان على مدى التاريخ يشكل جزءاً لا يتجزأ من أرمينيا تاريخياً وجغرافياً

وبشرياً . إذ إن الممر الفاصل بين الإقليم وجمهورية أرمينيا السوفييتية يبلغ عرضه في أضيق نقطة له ٥ ــ ٨ كم وهو أمر ليس ذا شأن وقد جاء نتيجة تقسيم اعتباطي ورمزي دون أي معنى حقيقي ، وقد خطط من قبل حكام بعيدو النظر ليس لفصل المناطق الأرمنية المجاورة فحسب ، بل لإبقائها كذلك في حالة حصار دائم . وإلى الغرب من الإقليم مباشرة هناك منطقة مقسمة أوسع نسبياً لا يقطنها الأذربيجانيون مكونة من الإقليمين الإداريين (كيلباتشار) في الشمال الغربي و(لاتشين) في الجنوب الغربي وذلك قبل ضمهما إلى الاتحاد السوفييتي . وفيما بعد تم ضم الإقليمين إلى الحكم الأذربيجاني وصهر سكانها بالتدريج في ظل الحكم الأذربيجاني .

علاوة على ذلك لم يذكر أحد أن إقليم غاراباغ ذات الحكم الذاتي هو المظهر الوحيد لهذه الحقيقة . فهو ليس الإقليم الوحيد الذي سلخ عن أرمينيا بعد ضم جمهوريات ما وراء القوقاز إلى الاتحاد السوفييتي ، بل هناك مناطق أرمنية أخرى ألحقت بجمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية . فإلى الشمال الغربي من إقليم غاراباغ يوجد إقليم يسكنه الأرمن بمناطقه الإدارية الأربع قد تم تجزئته وسلخه عن أرمينيا وهي مناطق (شاهوميان ــ خانلار ــ شامكور ــ طاشكيسان باستثناء كيدابيك) وهذا الإقليم لا يتمتع

بالاستقلال الذاتي ، ناهيك عن أنه لا يحمل اسماً جغرافياً نظراً لاختلاف الجهاز الإداري الذي تعاقب عليه وجعله يحمل أسماء مختلفة مثل (شاكاشين ـــ أوديك ـــ كارتمان ـــ باريسوس ـــ القهر والترحيل التي مارسها الأذربيجانيون ، فلم يعد الأرمن اليوم للإشارة إلى الإقليم باسم كارتمان وهو مثل غاراباغ ليس جزءاً من أذربيجان بل هو استمرار مباشر وطبيعي لجمهورية أرمينيا . ويجب التنويه أنه بعد سنتين تقريباً أصبح لإقليم كارتمان الذي قطنه الأرمن منذ آلاف السنين صورة مختلفة ، تعود لأعمال القهر والترحيل التي مارسها الأذربيجانيون ، فلم يعد الأرمن يقطنون في مناطق كيدابيك وشامكور وطاشكيسان بل انحصر وجودهم في منطقة شاهوميان وكيداشين التابعة لمنطقة خانلار فقط إلا أن وجودهم في هاتين المنطقتين لم يكن يتسم بالأمان ، فقد كان مرهوناً بنتائج الصراعات والمصادمات اليومية .

وإلى جنوب غرب غاراباغ توجد جمهورية ناخيتشيفان ذات الحكم الذاتي والتي تعد منطقة أرمنية أخرى تم سلخها عن أرمينيا وإلحاقها إدارياً بأذربيجان . ولا تظهر هذه المناطق بوضوح على الخرائط الجغرافية المعاصرة والتي غالباً ما تكون مشوهة ، الأمر الذي يوحي بأنها كانت خاضعة لتطور مماثل في الدراما الوطنية . وإذا كان قد أثير موضوع غاراباغ الجبلي في شباط عام

١٩٨٨ وظهر اسم غاراباغ فقط فهذا يعود لكونه يتمتع باستقلال ذاتي مما أتاح له إمكانية التعبير عن نفسه بالطرق الرسمية والصحيحة المبنية على الدستور . أما كارتمان فهي منطقة مترامية الأطراف ولا يوجد لها تمثيل جماعي أو قناة دستورية . علماً أن الظروف السائدة في ناخيتشيفان أكثر تعقيداً نتيجة العوامل العرقية وعوامل أخرى كثيرة .

لقد برز إقليم غاراباغ الجبلي ذات الحكم الذاتي إلى حيز الوجود بصورة رسمية في عام ١٩٢٣ . وفي تلك الفترة بالذات أطلق عليه اسم غاراباغ الجبلي . ففي البدء أطلق اسم غاراباغ للدلالة على الإقليم برمته . ورغم وجود جبال ووهاد في غاراباغ فإن الاسم لم يكن شائع الاستعمال في أي من الأعمال الأدبية المتعلقة بالإقليم ، إلا أن هذا الاسم كان شائع الاستخدام في لغة الحديث والصحافة في معظم الأحيان . وكان يقطن تلك المناطق الجبلية والسهلية بشكل أساسي إن لم يكن بصورة تامة الأرمن على مر العصور . إلا أنه تحت وطأة هجمات القبائل البدوية الأجنبية ، أخذ الأرمن يلجأون إلى الجبال الأكثر أماناً ويتحصنون فيها ، فيما أخذ البدو الذين وفدوا إلى الإقليم والذين يعرفون اليوم بالأذربيجانيين يستقرون في السهول .

إن كلمة غاراباغ ليست كلمة أرمنية بل هي كلمة تركية

وتعني الكرمة السوداء . وتظهر الوثائق التاريخية أن الاسم ظهر في أواخر العصور الوسطى (القرون ١٤ ــ ١٦) وبصورة اعتباطية . وهكذا نجد أن الأصل اللغوي للاسم غير واضح ويخضع لعدة فرضيات . فهناك من يدعي أن الاسم ظهر نتيجة انتشار زراعة أشجار التوت ولا سيما الأسودالذيتنتشر زراعته بشكل وافر في الإقليم . بينما يقول آخرون أن الاسم كان قد أطلقه الغرباء الذين أزمعوا غزو الإقليم لكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من الأرمن وهزموا في ساحة المعركة .

أما الاسم الأرمني القديم لغاراباغ فهو أرتساخ وهو اسم بقي يطلق على الإقليم خلال فترات معينة من التاريخ . ومن المهم في هذه النقطة أن نسبر أغوار الماضي السحيق للإقليم في محاولة لإحياء صورته وتاريخه القديم ولكن قبل ذلك نجد من الأهمية بمكان عرض كل ما حدث في أرتساخ ــ غاراباغ وجمهورية أرمينيا بعد شباط ١٩٨٨ باقتضاب وهو التاريخ الذي تكشفت فيه الأحداث الهامة والمأساوية في الوقت نفسه .

ويجب التنويه بادئ ذي بدء إلى أن رد الأذربيجانيين على المطلب القانوني لسكان الإقليم الأرمن كان عنيفاً . إذ أخذ قادة تلك الجمهورية تمشياً مع تراثهم بحث الشعب الأذربيجاني بصورة علنيـة ومستترة ، كي يأخذ النضـال العدائي ضد الأرمن الصفة

القوميـة . فشنوا حملة عنيفة وضـارية من خلال وسـائل الإعلام والمقـررات الرسميـة ، كما ارتكبت أعمـال وحشيـة رافقهـا النهب والسلب وعمليات الترحيل ... الخ . ويجب التأكيد على أن كل ذلك لم يكن ليصـل إلى هذا الحد الذي لم يسبق له مثيل لولا الرعاية والتوجيه اللذين قدمتهما السلطات المركزية في موسكو .

وخـلال هذه الأحداث برزت سيـاسـة موسكو المركزية حيال جمهوريات ما وراء القوقاز تحت أقنعة عديدة ، وبصورة عامة اتسمت هذه السيـاسـة بالمـماطلة والتسـويف والميل إلى إرهاب الأرمن نفسيـاً ، ووضـعهـم تحت وطأة الآلة الدعائيـة ، ودعم السياسة المناوئة لهم ، ونشر مغالطات صريحة . وقد كشف النقاب عن هذه الميول المتحيزة خلال الجلسـة الموسعة لمجلس السوفييت الأعلى المنعقدة فى الثامن عشر من تموز ١٩٨٨ (التي نقل قسم منها على شاشات التلفزة) . ولم يتوان الحكام المجتمعون عن توجيه اللوم إلى سكان غاراباغ الأرمن وإلى الشعب الأرمني ككل مقللين من شأن عدالة قضيتهم القومية والتصريح بأن حلها هو ضرب من ضروب المستحيل .

وبتوجيهـات من روح « المبـادئ » التي اعتمدت في تلك الجلسـة أنشئت لجنة حاكمة خاصـة بموجب قرار رئاسـة مجلس السوفييت الأعلى بتاريخ الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٨٩ في

إقليم غاراباغ الجبلي ذات الحكم الذاتي والذي كان يخضع جزئياً لسيطرة موسكو . واعتبر القرار آنئذ أنه إجراء مؤقت وحل وسط . لكن الأحداث التالية أظهرت أن اللجنة الحاكمة لم تكن سوى ألعوبة لا تملك أية سلطة حقيقية ، وكانت عرضة لتدخلات السلطات الأذربيجانية التي كانت تصرفاتها كما كان متوقعاً معادية للأرمن .

وبعد مرور عشرة أشهر ونصف على صدور القرار ، أصدرت السلطات المركزية في موسكو في الثامن والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها وبشكل اعتباطي قراراً غير عادل ولا يستند على أي أساس سليم . فألغت اللجنة الحاكمة الخاصة وتم إعادة الإقليم إلى جمهورية أذربيجان . وبعبارة أخرى أعيد تسليم الإقليم إلى جلاديه . ولم يكن بوسع الأرمن تجاهل هذا التحدي غير الشرعي والمثير للفتنة وفي تلك الأثناء أعيدت دراسة الوضع الدستوري لأرمينيا في الاتحاد السوفييتي ، وأعلن مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية أرمينيا رسمياً الوحدة على أساس الأمر الواقع لإقليم غاراباغ الجبلي مع جمهورية أرمينيا ، وقد أثارت السياسة الملتوية من السلطات المركزية في موسكو وسياستها الهدامة قلقاً في المجتمع الأرمني محدثة شرخاً نفسياً عميقاً .

لقـد دعت الحـاجـة إلى الدفاع القومي عن النفس وإلى السعي وراء إيجاد معايير جديدة .

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أنه منذ العصور القديمة ، كان تاريخ أرتساخ بسكانه الأرمن جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الأرمن العام ، ومتداخل معه بشكل وثيق جداً . وخلال مسيرة تاريخه أصـــابتـــه الكثـــير من النـــوائب والكـــوارث إلاَّ أن التركيب العرقي ــ السكاني لم يكن موضع جدل . وتم التأكيد على هذه الوحدة التـاريخيـة في مصـــادر كثيرة جداً ، سواء كانت بصورة رئيسيـة أو ثانوية ، ودونت في مؤلفات عدد من الكتاب اللاتين واليـونان الكـلاسيكيـين منذ بداية القرن الخامس . كما دونت في الدراسات التاريخية التي أخذت تزدهر حديثاً ، وبشكل عام بدأ تدوين تاريخ الإقليم بصورة منتظمة منذ القرن السادس الميلادي .

يجب النظر للوضع التاريخي لأرتساخ ضمن سياق المناطق المجـاورة . وفي البدء يجب التنويه إلى أنه منذ القدم كانت هنـاك منـاطق أرمنيـة عديدة متواجدة في الجهة الشرقية من جمهوريات جنوبي القوقاز أي بين نهري (كور) و (أراكس) اللذين يصبان في بحر قزوين ، وتشمل المنطقة حالياً جبال القوقاز الصغرى والسهول الممتدة إلى الشمال والشرق . وهكذا تغطي الجبال والسهول المنطقة بالتساوي .

وكانت هناك ثلاث مناطق أرمنية في جبال القوقاز الصغرى والسهول المجاورة وهي (أوديك ، أرتساخ ، بايداكاران) . وكانت المملكة الممتدة في ذلك الوقت المسمى آنئذ بأرمينيا الصغرى مقسمة إلى خمس عشر مقاطعة تعرف بـ (أشخارنير) أي العوالم . وكان أرتساخ واحداً منهم ، وكان يضم اثنتي عشرة ولاية ، وإلى شماله وشماله الشرقي كانت تقع مقاطعة أوديك بولاياتها الثمانية وإلى الشرق والجنوب الشرقي تقع مقاطعة بايداكاران بولاياتها العشر ، التي لم تتمكن من الاستمرار كمقاطعة أرمنية فيما بعد بسبب موقعها الجغرافي الذي جعلها عرضة للتسلسل الأجنبي المباشر . أما أرتساخ وأوديك فقد تمكنتا من صد الغارات الأجنبية عليهما والحفاظ على الهوية الأرمنية . وقد اشتهر سكان هاتين المقاطعتين بأعمالهم البطولية على مر التاريخ . وفي الواقع فقد أصبح هذا الجزء من أرمينيا عائقاً قوياً في وجه الغارات الأجنبية ، ليس لسكان المقاطعات كل على حدة فحسب بل لسكان أرمينيا بصورة عامة .

إلا أن المملكة الأرمنية المتحدة تعرضت لمنافسات كثيرة وغارات خارجية ضارية لا سيما خلال القرن الرابع ، عندما كانت الامبراطورية الرومانية والساسانية في فارس هما القوتان الرئيسيتان المتنافستان في ذلك العصر . ففي سنة ٣٨٧ مثلاً قسمت هاتان

الامبراطوريتان أرمينيا فيما بينهما . إلا أنهما تسامحتا بإنشاء سلطات حكومية محدودة ومؤقتة من بقايا سلالة (أرشاكونيان) الأرمنية الحاكمة داخل المناطق المقسمة ولفترة محدودة من الزمن . أما المقاطعات المجاورة ، فقد واصل الفرس اقتطاعها وإلحاقها بالمقاطعات الإدارية التي أنشئت فيما بعد والمسماة بـ (مارزبانوتيون) (وتعني الحكم الفارسي للمقاطعة) مثل جيورجيا وأغفانك (ألبانيا) وفي تلك الظروف ضمت مقاطعتا أوديك وأرتساخ اللتين يقطنهما الأرمن إلى مارزبانوتيون أغفانك (أغفانك تعني أرض شعب أغفان) .

لقد كان التركيب السكاني لمنطقة أغفانك خليطاً من مجموعات عرقية عديدة . فإلى الجهة اليمنى لنهر كور كانت منطقة يقطنها الأرمن ، في حين كانت المنطقة اليسرى يقطنها ما يقرب من ست وعشرين مجموعة قبلية تشكل بمجموعها شعب أغفان . وأدت الدراسات العلمية الأخيرة التي اعتمدت بشكل كبير على أطلس أرمني وضع في القرن السابع ويدعى (أشخار هارتسويتس أي الخريطة) إلى إعادة ترتيب الصورة الجغرافية والإدارية للمنطقة في القرون السابقة ، واستناداً إلى هذه الدراسات كانت مساحة أغفان الحقيقية تبلغ ٢٣,٠٠٠ كم^{٢} وتضم إحدى عشرة ولاية . في حين كانت المنطقة الأرمنية تضم عشرين ولاية بمساحة تزيد عن

٢٦,٠٠٠ كم٢ . وقد خضعت حدود هذه المقاطعات إلى العديد من التعديلات وحسب تقدير الدراسات المتخصصة كانت المساحة الإجمالية في القرن السابع عشر مثلاً تبلغ ٧٢,٠٠٠ كم٢ .

وقد كان لإعادة توزيع الأراضي وتشكيل المناطق تأثيراً على المصطلحات والأسماء التي كانت تطلق عليها فلم يستخدم تعبير أغفانك للإشارة إلى مناطق أغفان الفعلية فقط ، بل كذلك إلى المناطق التي كانت في الأساس أرمنية والتي أمكن تحديدها جغرافياً وعرقياً وثقافياً . وقد بذلت محاولات قليلة لتمييز الشطر الأرمني باستخدام عبارات مثل (الحدود الشرقية لأرمينيا) .

اعتمدت المسيحية ديناً رسمياً في أرمينيا وجيورجيا وألبانيا . وأنشئت هيئة كهنوتية دينية في هذه البلدان وبعد تأسيس الحكم الفارسي في أغفانك واجهت كاثوليكوسية أغفان التي كانت قد أقامت صلات وثيقة مع الكنيسة الأرمنية ظروفاً جديدة صعبة . وبما أن الأغفانيين الأصليين كانوا ضعفاء نسبياً وغير منظمين ، فضلاً عن تعرضهم للضغوط الخارجية ، فقد أخذ تأثيرهم على الشؤون الدينية يتدنى ويضمحل بالتدريج ، ومن ناحية اخرى فإن تأثير الأرمن على شؤونهم الدينية الداخلية ازداد إلى حد أنهم سرعان ما أصبحوا قادرين على نقل الكاثوليكوس إلى منطقة يقطنها الأرمن والتي كانت أكثر أماناً نسبياً . وفي هذا السياق يجب التنويه

إلى أن زعيماً روحياً أرمنياً يدعى (ميسروب ماشدوتس) هو الذي اخترع الأبجدية الأرمنية في بداية القرن الخامس مع اختراعه أبجدية الجيورجيين والأغفان . لهذه الأسباب ولأسباب أخرى عديدة لم يتمكن الأغفان من تشذيب قدراتهم الأدبية ولم يكن لهم ثقافة خاصة بهم . أما الأرمن فقد استمروا ودون أي انقطاع ملحوظ في إدارة شؤونهم الداخلية وثقافتهم بصورة قوية وكان لهم في الوقت نفسه إسهاماتهم الهامة في مدنية العالم .

ونظراً لكون هذه المنطقة منفصلة إدارياً عن الوطن الأم ، فقد كان له تأثيره على الحياة بمنطقة أرتساخ ومصيره ، ناهيك عن المناطق الأرمنية المجاورة . إن عزل الإقليم جغرافياً جعل السكان يولون اهتماماً خاصاً بالتنظيم السياسي الداخلي وتركيز جهودهم على التطور والحفاظ على شخصية متميزة . ومن المؤكد أن هذه الجهود كانت قد فرضت نفسها نتيجة السياسة السائدة ، وليس نتيجة محاولات الانفصال الطوعية أو ميول النبذ . وفي الواقع فإن التاريخ قد بين فيما بعد أن السكان الأرمن في أرتساخ لم يفوتوا فرصة الإنضمام إلى مسيرة التاريخ الأرمني العام بل إنهم أخذوا في معظم الأحيان أدواراً قيادية .

وقد لعبت الأرستقراطية المحلية بشتى أنواعها وأجيالها المتعاقبة دوراً بارزاً في الحفاظ على الشخصية السياسية والوطنية للإقليم

وتوحيدها وكانت إمارة (أرانشاهيك) الأرمنة أكثرها فعالية في هذا المجال في إقليمي أوديك وأرتساخ . وقد ورث ممثلوهم القيادة ،وأنشأوا فيما بعد وحسبما تسمح لهم الظروف آنئذ في القرنين الخامس والسادس وكذلك القرنين التاسع والعاشر إمارات وممالك لم يذكر لهم دور في القرون اللاحقة .

لقد كان الشعور بالتضامن والوحدة بين صفوف الأرمن في القوقاز الصغرى قوياً . إلى حد أن الغزوات المستمرة على أرمينيا منذ القرن الحادي عشر على يد القبائل البدوية والسلاجقة الأتراك والتتر والمغول فشلت جميعها تقريباً في تصديع وحدتها العرقية وحياتها المستقلة الداخلية . وقد أدت المعارك المستمرة وأعمال النهب والمجازر على جميع الجبهات إلى تعريض الإقليم إلى الخطر ، أي إنه تمكن من صدها بنجاح بالاعتماد على قواه الذاتية . وعلى الرغم من أن حدوده الإدارية كانت قد تعرضت إلى تغيرات عديدة ، لكن الإقليم ككل احتفظ بهويته الثقافية والسكانية المتميزتين . وفي القرن العاشر تغير الاسم الجغرافي لأرتساخ ليصبح (خاتشين) وفي القرن الخامس عشر أصبح غاراباغ . وكانت إمارة خاتشين بين القرنين العاشر والسادس عشر ظاهرة بارزة في تاريخ الإقليم . وبعد تفككها وتشتتها إلى إمارات صغيرة بدأت تظهر الممالك الصغيرة (ميليكوتيون) وأخذت دوراً تاريخياً

هاماً . وفي نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر انقسمت خاتشين التاريخية إلى خمس ممالك صغيرة وهي (كوليسدان ، تشرابرت ، خاتشين ، فارانتا ، تيزاك) شكلت مع بعضها تحالفاً عسكرياً عرف بـ (الممالك الخمس) للدفاع عن نفسها من هجمات الأتراك والفرس المتكررة وقد شمل هذا التحالف مساحة تمتد من المناطق المجاورة لمدينة كانتساك في الشمال إلى نهر أراكس في الجنوب . ولم ينحصر دور الممالك في الدفاع عن الإقليم والزود عن حياة السكان المحليين ، بل امتد إلى بذل جهود كبيرة على المستوى الوطني ، فعلى سبيل المثال كان من إحدى مبادراتها تنظيم البعثات المتكررة إلى بلدان أوروبا الغربية وروسيا لحشد الدعم من أجل تحرير الأمة الأرمنية بكاملها من الهيمنة التركية والفارسية .

وقد اتحدت إمارات غارباغ الأرمنية لتنظيم شؤونها الخارجية لفترة طويلة من الزمن استمرت حتى منتصف القرن الثامن عشر ، حينما تضعضع الاتحاد برمته ، فقد قام (شاه ناظار) الأخ الأصغر للميليك (هوفسيب) حاكم فارانتا بالقضاء على أخيه وعائلته بالغدر واستولى على فارانتا ، وأعلن نفسه الميليك شاه ناظار الثاني . وخشية انتقام الأمراء الآخرين سعى إلى إقامة تحالف مع القوى الخارجية ، وقد استغل هذا الوضع زعيم إحدى القبائل

التركيـة ويدعى (باناه علي) ليتمركز في السهول وليقيم فيما بعد إمارة أكبر . لكن الأمراء الأرمن المدركين لنواياه والخطر المحدق بهم اتحدوا لمنعــه من الدخول إلى غـاراباغ ، إلا أنه بالرغم من هذه المعارضة ، عرض الميليك شاه ناظار على باناه علي أن يحشد قواته في حصن شوشي . وكان ذلك كافياً لباناه علي الذي شجعته أيضاً العائلة الملكية الفارسية لإنشاء أول مملكة أجنبية وغير أرمنية ديناً وعرقـاً في إقـليم غـاراباـغ الجبلي . وقد حدت سيـاستـه القمعيـة والنكبــات التي أنزلهـا بالشعب الأرمني في الإقليم إلى النزوح إلى المناطق الأكثر أماناً . وواصـل ابنه إبراهيم سياسة باناه القمعية . واستمرت إمارة غاراباغ أو إمارة شوشي حتى عام ١٨٢٢ حيث وقعت بعدها بأيدي إدارة جديدة .

وفي عام ١٨٠٥ قَبِل الأرمن في غاراباغ السيطرة الروسية على الإقليم طواعية ، والتي أكدتها معاهدة كيوليسدان السلمية بين روسيا وإيران عام ١٨١٣ . ورغم أن هذا التنظيم الجديد لم يجلب الحريـة الحقيقيـة للأرمن ، إلا أنه ولفـترة طويلة من الزمن ، فقد حافظ الإقليم على وجوده الجغرافي منيعا ضد الاعتداءات المستمرة التي كان يشنها الأعداء في المناطق المجاورة . وأصبح غاراباغ جزءاً من الامبراطورية الروسية ، وعمل ضمن جهازها الإداري في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وشيئاً فشيئاً

أخذ الإنتاج الاقتصادي يستعيد نشاطه مثله مثل النشاط الثقافي ، فأسست مدارس ومسارح وصحف جديدة . ونتيجة لذلك أصبحت طبقة المثقفين المحليين نشطة جداً ولا سيما في شوشي العاصمة التي أصبحت في نهاية الأمر واحدة من أكثر المراكز أهمية في الحياة الثقافية للأرمن في جنوب القوقاز .

بيد أن غاراباغ شأنه شأن المناطق الأرمنية الأخرى عانى ما عانته من السياسة القيصرية في رسم الحدود الإدارية . وتتمثل هذه السياسة التقليدية المعروفة لدى جميع الامبراطوريات في تجاهل التركيب العرقي لمنطقة ما ، وخلق وحدات إدارية وهمية بحيث تؤدي إلى منع إمكانية قيام كيان وطني أو عرقي في منطقة أو ولاية معينة لكي لا تشكل الأكثرية ، لذلك كانت إعادة التنظيم الإداري المتكرر تتبع تعليمات سياسة الحكومة في اتخاذ تدابير ملائمة للهيمنة العسكرية . وفي الواقع عاشت مجموعات عرقية وقوميات مختلفة مع بعضها دون أي تمازج .

وفي عام ١٨٦٨ أسست مقاطعة اليزابيتوبول (كانتساك بالأرمنية ، كانجا بالتركية ، كيروفاباد الحالية) وأصبحت مدينة اليزابيتوبول مركزها الإداري . ولا شك أن تكوين الولايات في هذه المقاطعة الجديدة لم يكن يعكس الصورة العرقية ــ السياسية للمقاطعة ، بل عكس المبدأ الامبريالي المعروف بسياسة (فرق

تسـد) . وفي هذه المقاطعة دخلت ولاية كانتسـاك التي يشكل الأرمن معظـم سكانها ، والولايات التي تقع داخل إقليم غاراباغ (وهي شوشي ــ جبرائيل ــ جيفانشير) التي يحمل أغلبها أسماء أجنبية ونصف سكانها من الأرمن ، وولاية زانكيزور الواقعة خارج الحدود .

إن تفـاهة موضـوع رسـم الحدود الإدارية في ظل الحكم القيصري جلية تماماً . فقد أصبح من المستحيل إجراء أي تعديل إداري في ظل النظام القيصري ومهما يكن فإنه غداة ثورة شباط ١٩١٧ ، عندما انهار نظام القيصر ، وأقيمت جمهورية ديمقراطية ، انبعثت الرغبة في إدخال إصـلاحات في ولايات ما وراء القوقاز والحاجة إلى دراسـة موضـوع الحدود الإدارية على أسـاس المبدأ القومي ــ الديمغرافي وانتشـرت الحركة انتشـاراً واسعاً ، ودعمها اقتراح الأرمني الشيوعي الشهـير (استبان شـاهوميان ١٨٧٨ ــ ١٩١٨) لمشاريع إصلاحية تسير في الاتجاه ذاته .

وفي هذه العجالة من تاريخ غاراباغ والأحداث المتصلة به ، لن يكون من الملائم تجاهل قتال التتر في عام ١٩٠٥ (كان يطلق على الأذربيجانيين آنئذ اسم التتر) إذ بدأت المعارك في شباط في باكو ثم انتشـرت إلى شـوشـي وكانتسـاك ويريفان وناخيتشيفان وأمـاكن أخرى . وقد امتـدت الأحداث بشـكـل متقطع حتى

١٩٠٦ ــ ١٩٠٧ . وقد ثبت تاريخياً أن التتر هم المعتدون في حين كان الأرمن يدافعون عن أنفسهم مع وجود حالات نادرة من الانتقام . وحتى ذلك الوقت كان الرأي العام السائد بأن الممثلين الرسميين لحكومة القيصر من المحافظين وقادة الشرطة ... الخ . كانوا يشجعون المعتدين ويحمونهم بل ويمدونهم بالسلاح . ويفسر دور النظام القيصري في هذه المعارك بأنه كان يتبع سياسة تهدف إلى منع تطور المد الثوري في البلاد ، وذلك بإنزال العقاب بحق الأرمن الثوار والاعتماد على الرجعيين من التتر . ومهما كانت النتيجة ، فقد كانت السنوات الممتدة ما بين ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ سنوات عصيبة بالنسبة للشعب الأرمني إذ أن أعداءه قد وحدوا صفوفهم لتدمير الوجود الوطني الأرمني .

أسفرت الثورة الروسية في شباط ١٩١٧ وظهور النظام الديمقراطي فيما بعد عن انبعاث الحياة العامة وخلق بيئة مواتية لمختلف القوميات التي تتكون منها الامبراطورية الروسية . وأصبحت الحاجة ماسة إلى خلق منظور جديد ينظر من خلاله إلى العلاقات بين القوميات ، التي أصبحت الهاجس اليومي للامبراطورية وللثورة الروسية فيما بعد . وكان المناخ مواتياً لإيجاد هذا المنظور الجديد . كذلك كان الأمر في غاراباغ . ومن المناسب تقييم الأوضاع السائدة هناك في سياق العلاقات بين جمهوريات ما وراء القوقاز .

غداة اندلاع الثورة لاذ الحاكم (نيكولا نيكولا يفيتش) ورفاقه بالفرار من (تفليس) بعد أن ثبت فشل مشروعه في رَوْسَنَة القوقاز . وفي التاسع من آذار (حسب التقويم القديم) أصدرت الحكومة المؤقتة للجمهورية الروسية مرسوماً يقضي بتشكيل لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء من جنوبي القوقاز ، وهي عبارة عن هيئة تنفيذية عرفت باسم (أوزاغوم) . وبقيت هذه اللجنة فترة وجيزة برز خلالها الحماس القومي المحلي ، ودأب كل ممثل من ممثلي القوميات المختلفة على تحقيق مصالح كيانه القومي ، الذي كان غالباً ما يكون على حساب القوميات الأخرى .

وشأنه في الكثير من المجالات فقد ظهر في مجال تنظيم حياة المجتمع العديد من المجالس (المجالس الوطنية المركزية والمحلية داخل كل قومية عرقية) .

ونتيجة لذلك انعقد المؤتمر الوطني الأرمني في (تفليس) خلال الفترة من التاسع والعشرين من أيلول والتاسع من تشرين الأول لمناقشة مواضيع شائكة عديدة . ثم انتخب أعضاء المؤتمر (المجلس الوطني الأرمني) الذي شارك فيه ممثلون عن منظمات سياسية أرمنية مختلفة . وقد لعب المجلس دوراً رائعاً ولكن لفترة محدودة من خلال مسيرة حياة الأمة الأرمنية .

وبعد ثورة اكتوبر رفضت المنظمات السياسية لما وراء

القوقاز الاعتراف بالحكومة السوفييتية المركزية الجديدة . فانحل الـ (أوزاغوم) . وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني أنشئت (سيم) ، وأصبحت مفوضية ما وراء القوقاز هيئتها التنفيذية . وتضاعف عدد الممثلين داخل (سيم) ثلاث مرات ، بحيث أصبح العدد مساوياً لعدد الممثلين الذين تم انتخابهم للجمعية الدستورية لعموم روسيا .

وفي غضون ذلك بدأ الجيش الروسي المتمركز على جبهة القوقاز بالانسحاب بناء على طلب لينين والعودة إلى الوطن والسيطرة على الأراضي هناك . لذلك ترك أمر الدفاع عن الحدود البالغ طولها ٥٠٠ كم ضد الجيوش التركية الزاحفة على عاتق القوات الأرمنية وحدها . ورغم الهدنة الموقعة في الخامس من كانون الأول بين الجانبين فقد شن الأتراك هجوماً من جانب واحد خلال شهري شباط وآذار ١٩١٨ تعبيراً عن معارضتهم لقرارات معاهدة (بريست ــ ليتوفسك) . وأرغمت الولايات الواقعة وراء القوقاز على إعلان استقلالها عن روسيا . وفي ظل هذه الظروف أُعلنت الجمهورية الديمقراطية لولايات ما وراء القوقاز الكونفدرالية في التاسع من نيسان . إلَّا أنه سرعان ما تداعت الجمهورية الكونفدرالية تحت الضغط التركي وسقطت . وفي السادس والعشرين من أيار أعلنت جيورجيا استقلالها فتبعتها أذربيجان فأرمينيا .

وفيما يتعلق بإنشاء جمهوريات ما وراء القوقاز المستقلة تجدر الإشـــارة إلى أن كلمـــة (جيورجيـا) و (وجيورجي) كذلك (أرمينيا) و (أرمني) كانت مستخدمة منذ آلاف السنين للدلالة على كل من هاتين القوميتـين ووطنهمـا . ومن النـاحيـة الأخرى أقيمت جمهورية أذربيجان في المنطقة التي لم تعرف تاريخياً قط بأنها أذربيجـــان . فـإلى الجنـوب كان الإغريق يطـلقون على المنطقـة الجغرافيـة المجاورة (أتروباتين) (أدرباداكان بالأرمنية) ، ثم أخذ العـرب ينطقونها (أذربيجـان) ومن هنـا نرى كيف حصـــلت جمهورية أذربيجان الجديدة على هذا الاسم .

كما أن الاســـم الذي يطـلق للدلالة على هذه القـوميـــة الأذربيجانية يشوبه شيء من الغموض . إذ إن أفراد هذه المجموعة القومية ، الذين يعرفون اليوم بالأذربيجانيين ، هم من بقايا الأتراك السلاجقة ، والتتر والمغول وقبائل بدوية أخرى أخذت منذ القرن الحـادي عشـــر بالانتقـال إلى منـاطق ما وراء القوقاز ، اعتنقت الإسلام ، ثم راحت تستقر شيئاً فشيئاً في المنطقة بعد أن جعلت السكان المحليين يعتنقون الإسلام ، إلا أن خصائصهم القومية لم تتطور لتفي ببعض السمات الاجتماعيـة ـــ الثقافية والعرقية بالمعنى التقليدي . وقد أشير إليهم عند إجراء تعداد السكان أثناء النظام القيصري وفي العديد من الدراسات الأخرى بـ (المسلمين) ، كما

كانوا يدعون بـ (التـتر القوقازيين) . وكان الجيورجيون يدعونهم بـ (التتر) ، في حين كان الأرمن يشيرون إليهم بـ (الأتراك) ، وكان الأتراك العثمانيون يدعون بـ (الطـاجيك) . وكانت لغتهـم تركيـة أو هكذا كانت تسمى حتى منتصف الثلاثينات من هذا القـرن ، فـأصبحت تسـمى الأذربيجـانيـة واعتـبرت اللغـة الأم للأذربيجـانيـين . وفي فـترة إنشـاء الجمهورية لم يكن التعبـيران (أذربيجـان) و(الأرذبيجـانيـة) شـائعي الاستعمال ، بل كان يستخدم (آذري) في لغة الحديث للإشارة إلى قوميتهم . وهكذا يتبـين أن الخلط في التعبـير وتحديد الهوية منذ بداية (الجمهورية القومية) كان جلياً . إلا أنه من أجل تجنب المزيد من التشويش الذي لا مناص منه في الاصطلاح ولأغراض تهدف إلى توضيح بحثنا فسوف نلتزم بتعبير (أذربيجان) و(أذربيجاني) .

وبعد إقامة جمهوريات ما وراء القوقاز الثلاث ، بدأت رغبة الطبقـة الحاكمة الأذربيجانية في التوسع تبرز بجلاء وكانت هذه الطبقة مالكة ومتعطشة للتوسع والسيطرة . وقد تركز جلّ اهتمامها على توسيع أذربيجان لا لتشمل المناطق التي يقطنها الأذربيجانيون فحسب ، بـل كذلك لتشمـل نصف أرمينيـا القوقازية . ويمكن تعليل هذا المنطق على النحو التالي : كانتساك وغاراباغ وزانكيزور هي أجزاء لا تتجـزأ من أذربيجـان ، لأنها ضُمت خلال النظـام

القيصري إلى مقاطعة اليزابيتوبول أو كانتساك . كما أن ناخيتشيفان والمناطق المجاورة لها تنتمي بالضرورة إلى أذربيجان بما فيها مدينة يريفان لأن الأذربيجانيين هكذا يرغبون ، رغم أن جميع هذه المناطق كانت فيما مضى تابعة لمقاطعة يريفان التي هي جزء من ولاية أرمينيا . إن هذه النظرة التوسعية جعلت القيادة الأذربيجانية تتبع هذه السياسة .

ولتعزيز موقعها والسيطرة على الإقليم كان على أذربيجان أن تتبع سياسة الإبادة والترحيل وقد سنحت الفرصة المثالية لتحقيق هذه السياسة عندما دخلت الجيوش العثمانية إلى جنوب القوقاز عام ١٩١٨ ، حتى إنه قبل دخول الجيش العثماني فإن الأذربيجانيين عملوا كل ما بوسعهم وانتهزوا كل الفرص المتاحة لهم لمهاجمة الأرمن . وكانت الفظائع ترتكب ضد الأرمن في شهري شباط وآذار في (أريش) و(شاماخ) وأماكن أخرى . مثل هذه الفظائع كانت ستحدث في باكو لو نجحت الفتنة التي أججوها ولو لم تجرِ (محادثة باكو) بين الخامس والعشرين من نيسان ونهاية تموز . وفي واقع الحال لم يدافع الجنود الأرمن عن محادثة باكو بدوافع سياسية أو إيدولوجية بل كوسيلة لضمان وجود ما يقرب من ٩٠,٠٠٠ أرمني يقطنون المنطقة . وفي هذه الفترة عاد ما يقرب من ١٠ ــ ١٢ ألف جندي أرمني من الجبهة الغربية وتم

استدعاؤهم إلى باكو ، ولم يعودوا قادرين على العودة إلى وطنهم بسبب الحواجز التي أقامها الأذربيجانيون عند جميع المداخل والطرق الفرعية ، كما تعرض الجنود الروس العائدون من جبهة القوقاز للاعتداء والقتل . وبعد أن وصلت الجيوش العثمانية إلى أذربيجان ودخلت باكو في الخامس عشر من أيلول تشجع الأذربيجانيون لمهاجمة الأرمن وقتلهم بكل وسيلة ممكنة . فقد سقط في باكو مثلاً ما يقرب من ٣٠,٠٠٠ أرمني بين قتيل وجريح .

ولم يقصر الأذربيجانيون نشاطاتهم على المناطق الهامشية والنائية ، حيث كانت تقيم المجتمعات الأرمنية البريئة ، بل اتبعت الحكومة الأذربيجانية سياسة الإخضاع في المناطق المقصورة على السكان الأرمن . وكان إقليم غاراباغ يحتل شطراً كبيراً من سهوله الخصبة ملاكون أذربيجانيون أو ما يسمون بالارستقراطيين ، حيث كان يتركز أكثر من نصف الارستقراطيين الأذربيجانيين في منطقة كانتساك ويحتلون حوالي ٦٠ بالمائة من الأراضي . بيد أن غاراباغ بقي أرمنياً بجميع مظاهره . وقد دافع عن نفسه ضد التجاوزات الأذربيجانية بهدف التسلط على الإقليم وإخضاعه له .

ومن هنا يمكن التأكيد بأن حكومة أذربيجان بذلت كل ما بوسعها لإخضاع غاراباغ ، بينما قاوم سكان غاراباغ الأرمن ورغم الإصابات الشديدة التي ألحقت بهم من جراء سياسة الإخضاع ،

وتمكنوا من الحفاظ على استقلالهم الذاتي . ومن حين لآخر كان الأرمن ينظمون مجالس تمثيلية في الإقليم ، وينتخبون هيئات تنفيذية لمواجهـة الأزمات الناشئة ويعينون مفوضـين ... الخ . وكان إقليم غاراباغ ينفذ سياسته الخاصة به ، ولم يسمح لأية قوة خارجية أو سلطة مزعومة بإدارة أموره ، ورغم أن القوة كانت موزعة بشكل غير متسـاو ، فقد تمكن أرمن غاراباغ من الدفاع عن أنفسهم ، وكان جلّ اهتمامهـم يتركز في الاتحاد مع جمهورية أرمينيا . وبين عامي ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ اكتسبت المجالس التمثيـليـة في غاراباغ والهيئات التنفيذية التي برزت تسميات مختلفة ، وكان لها مخططات متناقضة ، إلا أنها كانت تهدف بالإجماع إلى الحفاظ على الهوية الأرمنية ، وأصبحت تعكس حاجة الجماهير للدفاع عن النفس .

وتبين الوثائق التاريخية وجود تعاون بين الأرمن في غاراباغ والأذربيجـانيـين المحليـين إلى حين وصـول الجيش العثماني . ففي شوشي مثلاً أنشئ مكتب سياسي انضم إليه ممثلون من الأحزاب السيـاسية الأرمنية والتركية لتسيير الشؤون السياسية في غاراباغ وزانكـيزور . ثم اقتصرت نشـاطات المكتب على غاراباغ بسبب عدم انسجام العلاقات والاتصالات مع زانكيزور ، وحتى صيف ١٩١٨ تعايش الأرمن والأذربيجانيون كل في منطقته دون حدوث قلاقل ذات أهمية .

وبعد دخول الجيش العثماني مسرح الأحداث ، قرر ضابط **عثماني يدعى نوري باشا تكوين (جيش خاص) ، وأصدر مرسوماً** يقضي بموجبه على الأرمن في غاراباغ الاستسلام على الفور للحكومة الأذربيجانية . وخلال الإجتماع الأول للممثلين الأرمن المنعقد في غاراباغ في الثاني والعشرين من تموز عام ١٩١٨ أعلن المجتمعون إقليم غاراباغ الجبلي منطقة مستقلة ذاتياً وإدارياً ، وأن المجلس الوطني وهو هيئة منتخبة من سبعة أعضاء يعتبر حكومتها المؤقتة . لذلك كان الإقليم على استعداد للدفاع عن نفسه ضد الأتراك والأرذربيجانيين الذين وحدوا صفوفهم في السهول ، وراحوا يهاجمون القرى الأرمنية ويدمرونها ويبيدون أهلها ، وأغلق الطريق الوحيد الذي يصل (يفلاخ) بـ (شوشي) ، وتم عزل سكان غاراباغ عن العالم الخارجي . وعندما وجد أرمن غاراباغ أنفسهم وقد انقطعت عنهم المساعدات الخارجية ولم يبق لديهم من المؤن سوى قدر قليل يحميهم من الموت جوعاً ، أخذوا يركزون على **قدراتهم وإمكانياتهم الخاصة ، وخلال اجتماعهم الثاني في السادس** من أيلول رفضوا طلب الأتراك بالاستسلام والامتثال لأوامر السلطات الأذربيجانية . وفي غضون ذلك وصل الجيش التركي إلى شوشي وواصل سياسته في الإبادة ، وقد صادف وصول الجيش التركي غداة عقد الجمعية الأرمنية اجتماعها الثالث بين الثاني عشر والعشرين من أيلول ، الذي اتخذ من خلاله قراراً يقضي بالتخفيف

من حدة المقـاومـة والتـوصـــل إلى اتفـاق لمنع وقوع المزيد من الإصابات . ورغم صدور أمر بتجريد جميع الأرمن من السلاح ، إلا أن هذا الأمر قوبل برفض شـديد في المنـاطق الريفيـة ، وقرر سكـان القرى مواصـلة الدفاع وتسـليح أنفسهم تحسباً لمزيد من الفظـائع . وفي نهـاية الأمر قرر الجيش التركي الانسحـاب من غاراباغ في الحادي والثـلاثين من تشـرين الأول نتيجة انهزامه في الحرب العالمية الأولى . غير أنه أخذ يدمر القرى الأرمنية الواقعة بين غـاراباغ وزانكـيزور أثنـاء انسحـابه . كما خلف وراءه عدداً من الضباط والوحدات العسكرية السرية .

بعد أن غادر الأتراك المنطقة ، حل البريطانيون مكانهم ففي كانون الأول عام ١٩١٨ أرسل قائد القوات البريطانية في باكو ، الكولونيل (شـاتل وورث) وحدة عسكرية إلى شوشي ، وشـأن الأتراك لعب البريطانيون دوراً سلبياً وهداماً بالنسبة لغاراباغ . إذ كان من الواضح أن بريطانيا كانت تسعى إلى ضم باكو وأذربيجان إلى دائرة نفوذها ، لذلك لم تتردد في إرضاء الحكومة الأذربيجانية على حساب الحقوق الشرعية للشعب الأرمني ، وكما فعل الأتراك نصح البريطانيون الأرمن بالاعتراف بسلطة الحكومة الأذربيجانية على غاراباغ . وفي الخامس عشـر من كانون الثاني عام ١٩١٩ وبالاتفاق مع البريطانيين عينت حكومة باكو الزعيم (خسرف بك

ســلطانوف) حاكماً على غاراباغ وزانكيزور . هذا الحاكم الجديد مشهور بمعاداته الشديدة للأرمن ، تجاوز سياسة أسلافه في ارتكاب الفظائع . فاعلن الأرمن خلال اجتماعهم الرابع في التاسع عشر من شباط احتجاجهم لتعيين خسرف بك كحاكم ولكل سياسة أذربيجان تجاه مناطقهم .

وأصدر الأرمن في اجتماعهم الخامس المنعقد في شوشي في الثــالث والعشـرين من نيســان الذي حضره (شــاتل وورث) احتجـاجاً مماثلاً . إلا أن هذه الاحتجاجات قوبلت بالتجاهل ، ومن أجل تنفيذ سياسة البريطانيين ، وبذريعة المحافظة على النظام في المنطقـة أرسـل البريطانيون ٤٠٠ جندي إلى شوشي مع ممثل صــاحبة الجلالة الجديد (ماك ماسون) . إلا أن الأذربيجانيين بدأوا بقيـادة حاكمهـم الجديد سـلسـلة جديدة من الفظائع في غـاراباـغ في شهر حزيران ، وخرج الأرمن في مظـاهرات شعبيـة حاشدة في يريفان وتفليس وفي مدن أرمنية أخرى احتجاجاً على هذه الفظائع .

وفي الثامن والعشرين من حزيران قرر الأرمن في الاجتماع السادس المنعقد في غاراباغ إيفاد ثلاثة مندوبين إلى باكو للتفاوض مع الحكومة الأذربيجانية ، وقد إغتيل أحد هؤلاء المندوبين وهو في طريقه إلى باكو في حين وصل المندوبان الآخران بسلام ، ونجحا في

التفاوض والتوصل إلى اتفاق ودي مع الحكومة ، وقد أسفرت هذه المفاوضات عن إصدار المجلس الوطني في غاراباغ قراراً خلال اجتماعه السابع المنعقد بين الثاني عشر والسادس عشر من آب يقضي (بالاعتراف المؤقت) بالسلطة الأذربيجانية على أراضيها لحين انعقاد مؤتمر السلام في باريس ، حين كان موضوع التوصل إلى حل لقضية غاراباغ من بين المواضيع الهامة المدرجة على جدول الأعمال التي سيبحثها الحلفاء ويلاحظ أن المجلس قد وافق على قبول هذه السلطة مؤقتاً وليس بشكل دائم .

وبصورة عامة كان عام ١٩١٩ عاماً مواتياً بالنسبة للجمهورية الأرمنية ، فقد بسطت الحكومة سلطتها على ناخيتشيفان وكارس في المنطقة المجاورة . بيد أن التعاون التركي الأذربيجاني سواء كان مستتراً أو مكشوفاً سعى إلى نسف تلك السلطة عن طريق إثارة أعمال الشغب والقلاقل المناوئة للحكومة الأرمنية في مناطق غاراباغ وزانكيزور وناخيتشيفان وسورمالو وكارس . وكانت المحاولات التركية تهدف إلى إقامة (جمهوريات مستقلة) ومجالس شورى . وكانت الجهود الدائبة تسعى لإقامة جبهة تركية أذربيجانية موجهة مباشرة ضد الجمهوريتين الأرمنية والجيورجية .

وأخذت زانكيزور تنظم نفسها . وعندما حاول الكولونيل

(شـاتل وورث) فرض سـلطته على هذه المنطقة ، جوبه برفض شديد وكانت النتيجة طرده من المنطقة . ورغم أن زانكيزور كانت منطقـة نائية ، فقد تمكنت من حكم نفسها من خلال (المجلس الوطـني المـركزي لزانكـيزور) أو (المجـلس الإقـليـمـي لزانكـيزور ــ غاراباغ) وعلى خلاف (كوختن) وأجزاء أخرى من ناخيتشيفـان التي ارتكبت فيهـا الفظـائع والمجازر فقد تمكنت زانكـيزور من مواجهـة الهجمات التركية الأذربيجانية وانتصرت عليها .

وكما أسـلفنا ، فقد رفض الأرمن في غاراباغ رفضـاً قاطعاً خضوعهم لأذربيجان بشكل دائم ونهائي . وقد أدى هذا الرفض إلى نشـوء مزيد من الغضب مشـاعر العداء من جانب الحكومة الأذربيجانية ، وتوج ذلك بتحرك الجيش الأذربيجاني كله تقريباً نحو غاراباغ في ربيع عام ١٩٢٠ . وفي الثالث والعشرين من آذار تعرض الشطر الأرمني من العـاصمة شوشي إلى أعمال التخريب الوحشية من قبل الجيش الأذربيجاني . وفي الثامن والعشرين من نيسان وبالتعاون مع الأتراك ، وبموافقة البرلمان الأذربيجاني تسلل الجيش الروسـي كذلك من الشمال إلى شـوشي دون أن يلاقي أية مقـاومة ، وفي الثـاني عشـر من أيار دخلت إحدى فرق الجيش الروسي شوشي ، وفي السادس والعشرين من أيار أعلن مجلس أرمن

غاراباغ في اجتماعه العاشر أن المنطقة جزء من الأراضي السوفييتية (عقد الاجتماع الثامن في العشرين من شباط ١٩٢٠ ، والاجتماع التاسع في الثالث والعشرين من نيسان من العام نفسه) .

وبعد أن أصبحت أذربيجان جمهورية سوفييتية ، واصلت الحكومة في باكور إرسال إنذارات نهائية إلى يريفان ، تطلب منها إخلاء مناطق غاراباغ وزانكيزور على الفور . وتابعت سياستها المعادية للأرمن هناك بشدة عن طريق انتهاز الظروف التي ظهرت أخيراً . ومهما كانت الظروف والنتائج ، فإن وضع الأراضي الأرمنية (غاراباغ ــ زانكيزور ــ ناخيتشيفان) بقي معلقاً ولم يبت فيه ، ومن الملاحظ أن معاهدة العاشر من آب ١٩٢٠ في تفليس بين روسيا السوفييتية وجمهورية أرمينيا أوضحت بشكل جلي أن هذه الأراضي محتلة (بصورة مؤقتة) من قبل الجيش الروسي .

لقد واصلت القيادة الأذربيجانية المتسترة تحت قناع الإيديولوجية الشيوعية وبرعاية النظام الشيوعي سياستها التوسعية المعادية للأرمن تمشياً مع خطا أسلافهم . وتشير أعداد كبيرة من الأرشيفات والوثائق إلى الطريقة التي قامت فيها القيادة الجديدة في المناطق الأرمنية (بنشر الدعاية للحكم السنوفييتي والدفاع عنه) .

لم تبدِ حكومة أذربيجان السوفييتية المشكلة حديثاً معارضتها للمطالبة بتوحيد الأراضي الأرمنية مع أرمينيا فحسب ،

بـل كذلك عـارض هذه المطـالبـة عدد من الشيوعيون الأرمن ، وكانت الحجج المقدمة من هؤلاء تتجلى في مفـاهيم متماثلة مثـل أرمينيـا (البرجوازية) و(الخاضعـة للامبرياليين) ... الخ . والتي حاولوا من خلالها إحراز تقدم لجعل أرمينيا جمهورية سوفييتية . وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٠ دخلت مجموعة من الشيوعيين الأرمن مع عدد من الجنود الروس والمليشيا الأرمنية قرية (إيتشـيفـــان) الحدودية قادمين من أذربيجـان ، وأعلنوا أرمينيـا جمهورية سوفييتية ، ووجهوا برقيات بهذا الشأن إلى كل من موسكو وباكو . وفي غضون ذلك أذيعت أنباء مثيرة استحوذت على اهتمام شـريحة واسعـة من النـاس جعلتهم يؤيدون جعل أرمينيا جمهورية سوفييتية .

وفي اليوم التالي ، قام أعضاء المكتبين السياسي والتنظيمي للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأذربيجاني في جلسة مشتركة (بحضـــور نـاريمـانوف ، كامينسـكي ، ستـاسـوفا ، سـركيس ، إيكـوروف ، حسـينوف ، قاسموف ، كاراييف ، سـيريبروفسكي وأروتشونيكيتسـة) بتكليف ناريمان ناريمانوف بتوجيه برقية باسـم اللجنـة الثورية لأذربيجـان السـوفييتيـة تهنئ فيهـا اللجنـة الثورية الأرمنيـة ، وإعلان بيـان ترد فيه نقاط مثل : إن الخلافات على المنـاطق بين أذربيجـان السـوفييتيـة وأرمينيـا السوفييتية لم يعد لها

وجود ، وكلا إقليمي زانكيزور وناخيتشيفان جزءان لا يتجزأان من أرمينيـا ، وحق إقليم غاراباغ في تقرير مصـيرها ... الخ . وهكذا ففي الأول من كانون الأول عندما لم تكن أرمينيـا قد أصبحت جمهورية سـوفييتيـة بعد (بل في اليوم التالي في ٢ كانون الأول) ، وخلال الاجتماع الرسمي لبـاكو السوفييتية الذي أقر جعل أرمينيا سوفييتية ، تلا ناريمانوف البيان التالي : لن تثار من الآن فصاعداً أية مشكـلة تتعـلق بالمناطق المختلف عليها ، ولن تراق الدماء بين الشعبين الأرمني والمسلم ، اللذين طالما تعايشا منذ قرون عديدة ، وإن إقـليمي زانكـيزور وناخيتشيفـان هما جزءان لا يتجزأان من ارمينيا السوفييتية ، وقد منحت الجماهير الكادحة في إقليم غاراباغ الجبلي الحق الكامل في تقرير مصيرها . ونشر هذا البيان وبيانات أخرى في الصحف المحلية ولاقت تأييداً من سيركو أورتشونيكيتسة وستالين نفسه ، بالإضافة إلى أن (برافدا) نشرت البيان بشكل بارز واعتبرتها خطوة هامة نحو الأمام في اتجاه توطيد الصداقة بين الشعوب . وقد أدى إعلان إعادة تنظيم الأراضي الأرمنية إلى ظهور شعور بالامتنـان بين صفوف الأرمن . وكانت المسـألة تتمثل في انتظـار الوقت المـلائم لتنفيذ الوعود التي أعلن عنهـا على الملأ من خلال القنوات الرسمية من النواحي القانونية والسياسية والإدارية . وبعد أشهر عديدة من إصدار البيان أصبح من الواضح أنها لم تكن سوى بيانات مضللة دولية ، وأنها لم تهدف إلا للإسراع في عملية

جعل أرمينيا سوفييتية .

وفي الســـادس عشـر من آذار عام ١٩٢١ ، أبرمت في موسكو معاهدة تركية سوفييتية ، تحمل في جوهرها طابع العداء للأرمن . إذ تقرر أن تسلخ ناخيتشيفان من أرمينيا وإعلانها منطقة ذات حكم ذاتي . كما تم التصديق على معاهدة موسكو في مؤتمر عقد في كارس بين السادس والعشرين من أيلول والثالث عشر من تشرين الأول من العام نفسه ، استهدفت تنظيم العلاقات بين تركيا وجمهوريات ما وراء القوقاز ، ويشير تطور الأحداث إلى أنه منذ الأشهر الأولى من سنـة ١٩٢١ أخذ التعـاون التركي السـوفييتي يزداد ، وبدا أن موسكو حريصة على إرضاء الأتراك ، ولم تكن تعير اهتماماً كبيراً لتلبية المطالب الأرمنية الشرعية .

واحتل موضوع تخطيط الحدود بين الجمهوريات السوفييتية مـا وراء القوقاز مرة أخرى أهميـة خاصـــة . ففي أوائل أيار عام ١٩٢١ ، عندما أصبحت الجمهوريات الثلاث السوفييتية ، أصبح من الممكن الشروع في بذل مجهود جاد لحل مشكلة الحدود ، وبناء على ذلك عقدت قيـادة الحزب عدة اجتماعات مغـلقة من أجل البت في مسـألة الحدود ، وتوصلت نهائياً إلى (حلول) لم تكن تستند على العدل ، بل كانت مضرة بالشعب الأرمني . ومن المثير للاهتمام أنها لم تتطرق بصـورة جدية إلى المبادىء المعلنة للحقوق

والعدالة ، ولم يكترث المفاوضون للوصول إلى حلول عادلة ، وفي الواقع فقد دأبوا على تغيير الآراء وخلق أوضاع متناقضة ، أمكن معها للأحزاب ذات اليد الطولى أن تتخذ قرارات تعسفية .

وفي الثاني من أيار ، عين المكتب القوقازي للحزب الشيوعي لجنة خاصة لمعالجة المشكلات المتعلقة بأراضي جمهوريات ما وراء القوقاز برئاسة (سركي كيروف) وعضوية (سفانيدزه) و (تودريا) من جيورجيا . (حسينوف) و (هاجينسكي) و (رسول زاده) من أذربيجان و (بيكزاديان) من أرمينيا . وقد فوض إليها للتوصل إلى حل بشأن التعديلات الحدودية كي يصادق عليه المكتب في نهاية الأمر . غير أن تشكيل اللجنة غير المتعادل عرقياً منذ تأسيسها أوضح أن النتيجة كانت مقررة سلفاً . فقد عقدت اجتماعات اللجنة في تفليس بين الخامس والعشرين والسابع والعشرين من حزيران .

وخلال الجلسة الأولى ، أكد ممثل الجمهورية الأرمنية بيكزاديان على الحاجة إلى دراسة التقسيمات الإدارية غير العادلة لمناطق ما وراء القوقاز السائدة منذ العهد القيصري ، وأخذ هذه التقسيمات الإدارية بعين الاعتبار ، وضرورة إيلاء الوضع الخطير في أرمينيا السوفييتية اهتماماً خاصاً . وطالب بيكزاديان بوجوب تقديم تنازلات بالأراضي لصالح الأرمن وخاصة فيما يتعلق بالمناطق التي

تقطنها أعداد كبيرة من الأرمن . وأشار إلى حالة إقليم أخلكالاك (تشـافاخك) التي ألحقت بجيورجيـا والتي تبـلغ نسبة السكان الأرمن فيهـا ٧٢٪ والمنطقـة المحايدة (لورى) التي كانت أغلبيـة سكانها من الأرمن ، وإقليم غاراباغ الجبلي التي يشكل ٩٤٪ من سكانه الأرمن . وفيما يتعلق بموضوع غاراباغ ، فقد ذكر كذلك أنه في أثنـاء مباحثاته مع مياسنيكيان وستالين في موسكو ، كان ستالين بوجه خاص قد أبدى دعمه التام لوجهة النظر الأرمنية . غير أن أعضـاء اللجنة الجيورجيين والأذربيجانيين عارضوا بشدة الاقتراحات التي أبداها بيكزاديان ، ورفضوا فكرة تعديل الحدود . ومن المثير للاهتمام والغرابة أن رئيس اللجنة (كيروف) كان على اتفـاق معهم . ورأى الجيورجيون من جانبهم أنه من الملائم جداً المطالبة بأراضي (كارایاز) من اذربيجان وراحوا يتجادلون لتحقيق هذه الغـاية . واحتدم الجدال بين الطرفين بحيث ارغم أعضـاء مكتب الحـزب الشـيـوعي القـوقـازي (أورتشـونيكيتسـة) و (أوراخيـلاتشفيلي) و (إليـافا) على حضـور جلسـة السـادس والعشـرين من حزيران للتدخل شخصياً لحل النزاع . ومع ذلك بقيت مسـألة المناطق دون حل ، ورفع الموفد الأرمني بيكزاديان بدوره المسألة مباشرة إلى المكتب القوقازي .

ويجدر التنويه إلى حادث وثيق الصـلة بالموضـوع ، ففي

الثالث من حزيران وخلال جلسة المكتب القوقازي بكامل أعضائه اتخذ قرار بتصفية الثوار في (زانكيزور) جنوبي أرمينية على الفور . وورد في نص القرار أن على حكومة أرمينيا تمشياً مع إعلانها بشجب الفتنة أن تعلن أن إقليم غاراباغ الجبلي ينتمي إلى أرمينيا . واستناداً إلى هذا القرار أصدرت الحكومة الأرمنية بدورها بياناً نشرته جريدة (أرمينيا السوفييتية) الرسمية في عددها الصادر في التاسع عشر من حزيران ، وقد أوضح البيان الموقع من قبل ألكسندر مياسنيكيان ، والمؤرخ في الثاني عشر من حزيران أنه « استناداً إلى إعلان اللجنة الثورية لجمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية والاتفاقية المبرمة بين الجمهوريتين الأذربيجانية والأرمنية ، نعلن أن إقليم غاراباغ الجبلي هو من الآن وصاعداً جزءاً لا يتجزأ من جمهورية أرمينيا السوفييتية الاشتراكية » .

ومن ناحية أخرى فإن الوضع في زانكيزور كان على النحو التالي : بعد أن أصبحت أذربيجان جمهورية سوفييتية احتل الجيش الروسي الحادي عشر أقاليم غاراباغ وزانكيزور وناخيتشيفان ولجأ الأرمن في زانكيزور إلى الثورة الشعبية المسلحة في العاشر من تشرين الأول من عام ١٩٢٠ . ونتيجة لذلك أعلن أن زانكيزور منطقة مستقلة ذات هيئة وتمثيل حكومي . وفي الواقع فإن تجارب غاراباغ وناخيتشيفان قد أرغمت سكان زانكيزور على اتخاذ هذا

الإجـراء الوقـائي منـعـاً لضم الإقـليم إلى أذربيجـان . وقد بذل الشيوعيون الأرمن كل ما بوسعهم لنزع السلاح من الشعب ، إلاَّ أنهم واصلوا كفاحهم بعناد حتى تموز عام ١٩٢١ . وبفضل هذه المقاومة الشعبية بقيت زانكيزور داخل حدود أرمينيا السوفييتية . وبالطبع كان الهدف الرئيسي لمبادىء إعلان الثاني عشر من حزيران عام ١٩٢١ (بخلاف تفهم أقرانهم الأرمن) قمع مقاومة زانكيزور وتحويل المسار السياسي للشعب الأرمني .

مع إعلان الثاني عشر من حزيران ، عينت الحكومة الأرمنية (أسـكنـاز مرافيـان) ممثـلاً لإقليم غاراباغ الجبلي . وفي الخامس والعشرين من حزيران استقل مرافيان مع أسعد كاراييف القطار من تفليس إلى غاراباغ . وفي محطة (إيفلاخ) أعلم كاراييف مرافيان على نحو غير متوقع بأنهمـا يجب أن يتوجهـا أولاً إلى باكو لعقد اجتماع تسوية دبره ناريمانوف لتسوية قضية غاراباغ ، إلا أن مرافيان رفض المضي في هذا التدبير الجديد وأرسـل في اليوم نفسه رسالة **إلى أورتشونيكيتسة في تفليس معبراً عن احتجاجه على سياسة الأمر** الواقع هذه . وقد صادفت رسالة مرافيان مع انعقاد اجتماع اللجنة الخاصة لبحث النزاعات في تفليس . ولذلك في السادس والعشرين من حزيران أرسل أورتشونيكيتسة وكيروف البرقية العاجلة التالية إلى ناريمانوف في باكو :

« إن قطع المفاوضات مع الأرمن بشأن تسوية مسألة تخطيط الحدود يخلق وضعاً غير موات إذا ما نظرنا إلى الأوضاع المتوترة السائدة في زانكيزور . نطلب منكم دعوة المكتب السياسي والمفوضيات السوفييتية الشعبية على الفور من أجل حل مسألة غاراباغ لتعزيز وضع المفاوضات وإنهائها غداً في السابع والعشرين من حزيران . وفي رأينا فإن المبدأ الذي يجب أن تقوم عليه المفاوضات لتحقيق أفضل النتائج وإقامة تعاون دائم يكون مرشداً لكل المحاولات لحل قضية غاراباغ هو كالتالي :

عدم ضم أية قرية أرمنية إلى أذربيجان ، وعدم ضم أية قرية أذربيجانية إلى أرمينيا » .

واتخذ المكتب السياسي للجنة المركزية الأذربيجانية خلال جلسة مشتركة مع الحكومة قراراً معاكساً تماماً . فقد قرر وجوب عدم توحيد غاراباغ مع أرمينيا ، وإلا فإن الحكومة لن تتحمل أية مسؤولية في هذا الصدد . وفي ظل هذه الظروف الغامضة قررت رئاسة المكتب القوقازي عقد اجتماع خاص بكامل هيئته لبحث مشاكل الحدود ودعا ناريمانوف وميا سنيكيان للحضور إلى تفليس على الفور .

وفي أثناء ذلك كان ستالين في نالتشيك (شمال القوقاز) للمعالجة الطبية ثم توجه إلى تفليس للمشاركة في الجلسات التامة لمكتب القوقاز المنعقد بين الثاني والسابع من تموز لبحث مواضيع

عديدة ، لاسيما تلك المتعلقة بالعلاقات بين الهيئة السوفييتية المركزية والجمهوريات . وفي الثاني والثالث من تموز عقدت جلسات موسعة للمكتب شارك فيها واحد وخمسون مسؤولاً من مختلف المناصب وبحثت الجلسة المسائية في الرابع من تموز مسألة إقليم غاراباغ الجبلي .

وفي هذه الجلسة حضر أعضاء المكتب الثمانية (الجيورجيون : أوتشونيكيتسة ، ماخارادزة ، أوراخيلاتشغيلي الأذربيجاني ناريمانوف ، واليهودي فيكاتز) بالإضافة إلى ستالين نفسه . وظهرت خلال المناقشات وجهتا نظر وتم التصويت على أربع مقترحات . لم يحضر أوراخيلا تشغيلي عملية التصويت ، ومن الصعب معرفة الدافع الحقيقي وراء غيابه ، لكن إذا ما أخذنا الظروف السائدة آنذاك بعين الاعتبار فمن المنطقي أن نقول أن غيابه كان متمشياً مع النمط العام لسلوك الشيوعيين الجيورجيين الذين مثل المنشفيك من قبلهم كانوا يستسلمون للأذربيجانيين ، ولم يتوانوا في إلحاق الضرر وإضعاف أرمينيا .

وفي الواقع يجب تحميلهم مسؤولية كبيرة بشأن القرارات التي اتخذت في العشرينات من هذا القرن .

وكانت قد اقترحت في هذه الجلسة ما يلي :

١ ــ إبقاء غاراباغ بشكل تام ضمن حدود أذربيجان .

الموافقون : ناريمانوف ماخارادزة ، ناظاروف .

المعارضون : أورتشونيكيتسة ، سياسنيكان ، مياسنيكيان ، كيروف ، فيكاتز .

٢ ــ إجراء استفتاء في إقليم غاراباغ برمته بمشاركة الشعبين الأرمني والأذربيجاني .

الموافقون : ناريمانوف وماخارادزه .

٣ ــ ضم إقليم غاراباغ الجبلي إلى أرمينيا .

الموافقون : أورتشونيكيتسة ، مياسنيكيّان ، كيروف ، فيكاتز .

٤ ــ إجراء استفتاء بين السكان الأرمن فقط في إقليم غاراباغ الجبلي .

الموافقون : أورتشونيكيتسة ، مياسنيكيان ، كيروف ، فيكاتز ، ناظاروف .

وهكذا أقر ضم إقليم غاراباغ الجبلي إلى أرمينيا وإجراء استفتاء في تلك المنطقة فقط . إلا أن ناريمانوف عارض على الفور هذه القرارات وطالب بإحالة الموضوع إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لروسيا السوفييتية لمزيد من الدراسة . وبعد أن وافق المكتب القوقازي على الاحتجاج قرر فوراً إحالة الموضوع إلى اللجنة المركزية باعتبارها الهيئة العليا لاتخاذ القرار النهائي بذلك .

ورغم آنه يحق لستالين التصويت بصفته عضواً في اللجنة المركزية فقد أحجم عن ذلك . فقد أشار في وقت سابق ، وفي ظروف مختلفة إلى أنه كان من أنصار توحيد المناطق المأهولة بالأرمن

مع أرمينيا ، لكن سلوكه خلال جلسة المكتب أظهر النقيض ، أي أنه لم يكن صادقاً في كلامه ، ومما لا غرو فيه فقد أوصى ستالين بفسخ القرار المتخذ بشأن إقليم غاراباغ الجبلي ، وإلغاء الاجتماع الذي تم التوصل إليه في الرابع من تموز وذلك في جلسة الخامس من تموز . وقد تم اتخاذ قرار جديد لم يُرضِ الأرمن . وفي الواقع فقد اقترح كل من أورتشونيكيتسة وناظاروف إعادة النظر في القرار المتخذ السابق . ولكن دون أي اعتراض تم إقرار عدم إحالة المسألة إلى اللجنة المركزية ، بل منح الإقليم استقلالاً ذاتياً أوسع داخل حدود أذربيجان .

وبعد عامين في السابع من تموز عام ١٩٢٣ أعلن رسمياً إقليم غاراباغ الجبلي إقليماً ذا حكم ذاتي ومساحته ٤٤٠٠ كم^{٢} وعزلت المناطق المألوهة بالأرمن والمجاورة لغاراباغ ، الأمر الذي أحدث وضعاً أسوأ بكثير مما كان عليه بالنسبة للسكان الأرمن .

حدت انتفاضة الأرمن في شباط ١٩٨٨ بالكثير من المراقبين إلى التساؤل عن أسباب قيام الأرمن بالثورة بعد عقود من الصمت . أو لماذا في هذا الوقت بالذات . ولكن إحاطتنا بتاريخ القضية سيؤدي إلى إزالة هذا التساؤل . إذ يمكن التأكيد بشكل لا يقبل الجدل أن أرمن غاراباغ والأرمن داخل الوطن وخارجه لم يعتبروا سلخ الإقليم والأراضي الأرمنية الأخرى وضمها إلى كيانات

سياسية أجنبية أمراً شرعياً . وكان الكفاح سواء كان ظاهراً أو غير ظاهر بهدف إعادة توحيد هذه المناطق الأرمنية مع الوطن الأم مستمراً خلال السبعين عاماً الماضية . أي قبل وبعد دخول السوفييت .

وقبل أن تصبح المنطقة سوفييتية ، كان التهديد الأزلي يتمثل في الميول التوسعية الأذربيجانية والقوى المتعاونة معهم . واستمر الكفاح باسم حفظ الهوية كما استمر التنظيم والدفاع الذاتيين . أما بعد دخول السوفييت اتسع نطاق التهديد بصورة متزايدة ، لأنه بالإضافة إلى الضغط الأذربيجاني الفعلي ، فقد اتبع أصحاب النفوذ في نظام الحزب السوفييتي الواحد وبثبات سياسة استبدادية ومعادية للأرمن ، وأخذوا يحتكرون سياسة التخويف والقوة الوحيدة الجانب في نظامهم . لذلك كان على حركة النضال الأرمني أن تتأقلم مع الظروف المتغيرة المتمثلة غالباً في إظهار البغض وسوء السلوك ، ولكن ضمن سياسة محددة المعالم وذات أهداف محددة .

لقد لقي النضال الهادف إلى تحرير المناطق الأرمنية دعماً من فئات اجتماعية عديدة ، كالذين لم يوافقوا من حيث المبدأ على نظام الحزب الواحد الذي أنشئ حديثاً ، والذين أذعنوا لهذا الأمر وتأقلموا مع النظام الجديد ، لكنهم لم يتحملوا سياسة التمييز ضد الأرمن أو سياسة الاضطهاد الممارسة ضد كيان قومي .

وفي خريف عام ١٩٢٠ . بعد بضعة أشهر من قيام

الحكومة السـوفييتة في أذربيجان اندلعت انتفاضـة شعبية واسعة النطاق في جنوبي غاراباغ ضد الحكومة استمرت ستة أشهر . وقد ماثلت هذه الانتفاضة العصيان الذي حدث في زانكيزور بقيادة (كاريكين نشتيه) وقد رأس الانتفاضة (تيفان استيبانيان) من قرية تومي بمنطقة تيزاك (هاتروت) في جنوبي غاراباغ والذي كان ضابطاً سابقاً قي كتيبة الخيالة التابعة للجيش الروسي . إلا أنه تم قمع الانتفـاضــة في نيسـان ١٩٢١ على يد ثلاث وحدات من الجيش الأحمر ، مرغمـين قادة الانتفاضـة على الهرب إلى مناطق مختلفة . عدد منهم وبرفقة رئيس الحركة توجهوا إلى إيران ، في حين لجأ آخرون إلى غابات وجبال تيزاك المجاورة ، بينما توجه آخرون إلى زانكيزور للالتحاق بقوات كاريكين نشتيه .

ورغم مغـادرة تيفـان استيبـانيـان وعدد قليـل من أتبـاعه البلاد ، إلا أن فكرة (التيفانية) رسخت في أذهان الناس وظلت حية لدى السـلطات الحكومية التي كانت تستخدم هذه العبارة ذريعـة لقمع النـاس واضطهـادهم كلما رغبوا في الإفصـاح عن مشـاعرهم الوطنية . واستخدم هذا التعبير بصورة خاصـة خلال السنوات الماساوية من ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨ .

واستغـرق تنفيـذ قرار معـاهدة تفـليس بضم إقليم غاراباغ الجبلي إلى أذربيجان سنتين . ومن الصعوبة بمكان تحديد الأسباب الحقيقية لهذه المماطلة . إلا أنه من الجلي أن سـلطات أذربيجان

بحثت عن كل الوسائل للتقليل من شأن الاستقلال الذاتي للإقليم إلى أدنى حد ممكن ، وتقييد حقوقه وتقليص مساحته . لذلك من الخطأ الافتراض بأن المنطقة اليوم تحتفظ بالصورة نفسها التي تم تخيلها بالبداية .إذ أنها تمثل النتيجة النهائية لاتفاقات مبرمة سراً وعلناً أو تمثل الخلافات بين الأطراف المتفاوضة .

كذلك فكر الشيوعيون الأرمن المحليون في مختلف الوسائل التي تفضي إلى حل عادل لقضية الإقليم . ومما لا ريب فيه أنه لم يتمكن عدد كبير من هؤلاء الشيوعيين نسيان انتمائهم إلى كيان قومي . وبهذا الصدد تجب الإشارة إلى أن مطالب الأرمن بشكل عام والاسلوب الذي تم من خلاله جعل المنطقة ذات استقلال ذاتي ، وخاصة تاريخ النضال الأرمني للدفاع عن النفس قد عرضت كلها بصورة مشوهة في تاريخ أرمينيا السوفييتية لأسباب معروفة جداً . لذلك فإن الكثير من الأرمن وخاصة الجيل الجديد وكذلك من غير الأرمن أصبحوا على قدر كبير من الاطلاع على أحداث العشرينات وما بعدها . كما تكشفت لهم الدوافع والميول العامة للذين وقفوا ضد الشعب الأرمني .

ونظراً لأن أذربيجان رفضت (التخلي) عن غاراباغ لأرمينيا ، ورفض الأرمن الانطواء تحت الحكم الأذربيجاني ، فقد كان ثمة (حل ثالث) في طريقه للظهور ، إذ تذكر الدراسات

السـوفييتيـة أنه في الخامس عشـر من شبـاط عام ١٩٢٣ ، قدم (سورين شادونتس) عضو اللجنة الخاصة لشؤون إقليم غاراباغ الجبلي تقريراً عن الوضع السـائد في غاراباغ إلى اللجنة القوقازية للحزب الشيوعي في تفليس . كما تذكر هذه الدراسات أن هذا التقرير الموجه إلى أورتشـونيكيتسـة قد قوبل بالرفض ، وضم إليه اقتراح بضم إقليم غاراباغ الجبلي وزانكـيزور مبـاشرة إلى الحكومة المـركزيـة لجمهـوريـات مـا وراء القـوقـاز الاتحاديـة السـوفييتيـة الاشـتراكيـة ، وليس إلى حكومة أذربيجـان على شكـل منطقة محايدة . ويجب الافتراض أن شادونتس لم يكن الوحيد الذي دعم وجهة النظر هذه ويحتمل أن تكون قد قدمت آراء أخرى . وعلى أي حال وبغض النظر فيما إذا كان قد لاقى هذا الاقتراح قبولاً أم لا ، فـإنـه يعتـبر شكـلاً آخر من أشكـال مقـاومة الأرمن لنوايا أذربيجان . وهكذا فليس من الصعب تصوير مسار الأحداث في حال قيام هذه المنطقة الإدارية المحايدة ، وإقامة جدار دفاعي بين أذربيجان وأرمينيا لكن مثل هذا (الحل الوسط) قد رفض .

وهكـذا فـإن كبـار المسـؤولين في الحزب الذين نسبـوا لأنفسهـم الشـرعيـة ، كانوا يشـاركون في تقرير مصـير الشعوب المعتمدة عليهم ، ولكن دون الالتفات إلى رغبات هذه الشعوب وطمـوحـاتهم ومصـالحهـم وكانوا يضعون باستمرار حواجز أمام

الطلبات والخطط التنموية التي كان يقدمها الشعب الأرمني . وكان الأرمن الشيوعيون الشباب ، ومعظمهم تنقصهم المهارة والخبرة في القيادة ، غير القادرين نسبياً على منافسة المجموعة الحزبية (المجاورة) والتي كانت منظمة بشكل أوسع وتشكل جبهة واحدة وقد ضحى رؤساؤهم بحياتهم من أجل (النضال من أجل النظام السوفييتي) فكانوا ضحية سياسة رفاقهم الغادرة والمعادية للشعب .

وعندما تبين أن المفاوضات الحزبية لم تكن كافية للدفاع عن مصالح الأرمن ، دعيت الجماهير الشعبية لحشد دعمها لتأييد هذه المطالب . فكتب الشيوعيون الأرمن المحليون خلال ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨ عريضة شعبية جمعوا تواقيع من أرمن كانتساك الجبلي والمناطق المتاخمة له ، طالبوا فيها بتوحيد المناطق الواقعة جنوبي جسر مدينة كانتساك مع إقليم غاراباغ الجبلي ، وتوحيد الإقليم ككل مع أرمينيا السوفييتية . وكان ذلك منسجماً بشكل كامل مع التركيب العرقي الديمغرافي والجغرافي للإقليم في ذلك الوقت .

ولب الموضوع هو إذا كان للعدالة والمنطق دوراً في تحديد رسم الحدود لجمهوريات ما وراء القوقاز فإنه يجب أن يكون جسر كانتساك هو نقطة التوحيد أو الفصل بين أرمينيا وأذربيجان ، إذ إن النهر الذي يعبر المدينة يفصل الأحياء الأرمنية عن

الأذربيجانية ، فإلى يمين النهر تمتد مناطق يقطنها الأرمن ، ورغم أنه يبدو اليوم أن التوزيع العرقي يقدم صورة مختلفة بعض الشيء بسبب تغلغل الأذربيجانيين بشكل مدروس ومنظم إلى الأحياء الأرمنية ، فإن الصورة الديمغرافية انذاك كانت لصالح الأرمن ، ورغم تغير الصورة الديمغرافية فإنه لا يمكن للمرء أن ينكر هيمنة الوجود الأرمني في المنطقة .

وباءت جميع الجهود الرامية لحشد الدعم الشعبي المبذول من قبل الشيوعيين الأرمن بالفشل بسبب السياسة القمعية والغاشمة في ظل حكم ستالين . غير أن تعبئة الجهود تشير بشكل كافٍ أن الأرمن في ظل الأذربيجانيين كانوا مدركين دائماً سوء المعاملة الممارسة بحقهم ، لذلك انتهزوا كل فرصة للتحرر من ربقة الدكتاتورية القمعية آنذاك . وكانوا واثقين أن المراسيم والقوانين المجحفة السائدة لن تكون دائمة ، وأن النضال المستمر والمطالبة المتكررة ستعيد الحق إلى أصحابه وتحقق العدالة وتلغي أي قرار اعتباطي وخادع .

ومن الجدير بالذكر أنه حتى خلال أيام استئثار ستالين بالسلطة والإغتيالات الكثيرة التي حدثت في عصره ، لم يتوقف الكفاح والمطالبة بحل عادل لتوحيد الأراضي الأرمنية . ورغم عدم توفر الوثائق والدراسات الجادة والمعتمدة على تلك الفترة ، إلا أنه مازال من الممكن التعرف على المحاولات المستمرة التي قام بها

الأرمن من أجل استعادة الحق من خلال معلومات مبعثرة هنا وهناك ولكنها ذات دلالة . فعلى سبيل المثال أثار أغاسي خانجيان (١٩٠١ ــ ١٩٣٦) رئيس الحزب الشيوعي الأرمني غداة تصفية الجمهورية الفيدرالية لما وراء القوقاز (١٩٢٢ ــ ١٩٣٧) ، وبعد أن طرأ تغيير على بنيان الجمهورية الفيدرالية ، أثار موضوع إعادة الأراضي الأرمنية إلى أرمينيا ، لكنه اغتيل في ظروف غامضة . هذه الأحداث وأحداث أخرى مماثلة توحي بل وتؤكد أن إقليم غاراباغ الجبلي والمناطق المغتصبة الأخرى لم تكن هاجس الأرمن المحليين فقط ، بل كانت تعتبر قضية قومية تهم جميع الأرمن .

في هذا السياق ، ألمح ستالين في كلمته عن الدستور الجديد خلال المؤتمر العام لعموم السوفييت في تشرين الثاني ١٩٣٦ في إشارة غامضة إلى مشكلات الحدود بين الجمهوريات وسخر بشكل خاص من أولئك الذين يواصلون بدون كلل السعي لإجراء تغييرات في الحدود . وهنا يمكن التأكيد بوضوح إلى أن التلميح الساخر كان موجهاً بصورة لا تقبل الشك إلى الأرمن . وذلك لأن الجمهوريات الأخرى في الاتحاد السوفييتي لم تكن تبدي اهتماماً ، مثلما هم اليوم ، في إجراء تغييرات في الحدود إلى الحد الذي يهم الأرمن ، وذلك بسبب سلخ أجزاء واسعة من أراضيهم .

وحتى صيف عام ١٩٨٨ ، لم تكن هناك دراسات وثائقية إلا ما ندر عن إقليم غاراباغ الجبلي وعن مصير سكانه الأرمن . إلا أنه نشرت فيما بعد عدة أبحاث عن أرمينيا ، ورأت بعض الوثائق النور والتي تلقي بعض الضوء على النضال التاريخي للشعب الأرمني . إذ أصبح من الواضح مثلاً أنه قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وفي خريف عام ١٩٤٥ ، أرسل السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرمني كريكور هاروتيونيان رسالة خاصة إلى اللجنة المركزية لعموم الاتحاد السوفييتي (أي إلى ستالين) يقترح فيها ضم إقليم غاراباغ الجبلي ذات الحكم الذاتي إلى جمهورية أرمينيا . وبدلاً من دراسة الطلب دفنه ستالين في متاهات الجهاز الحزبي ، وترك أمر حل المشكلة بيد زعيم الحزب آنذاك الأذربيجاني (باكيروف) المعروف بفساده وفظاظته . وكان مصير الطلب الإهمال . وهكذا نرى أن ستالين نفذ مرة أخرى إرادته .

وتصدرت الحركة الهادفة إلى إجراء تحسينات أساسية بالنسبة للوضع في غاراباغ والأراضي الأرمنية الأخرى الأحداث في الستينات . فقد بقيت عامة الناس في عزلة عما يحدث ، لكنه استناداً إلى الوثائق التي نقلت بوسائل مختلفة إلى خارج البلاد ، صار من الممكن تقرير طبيعة هذه الحركة من الاتجاه الذي سلكته والمسار الذي اتبعته .

لقد كان بين الوثائق الهامة تلك المناشدة التي وقع عليها ما يقرب من ٢٥٠٠. أرمني من غاراباغ وكارتمان والموجه إلى نيكيتا خروتشوف ، فقد استهلت الرسالة بالإشارة إلى تدهور الأوضاع في المنطقة ثم طالبت باتحاد المنطقة مع أرمينيا أو ... مع جمهورية روسيا الاتحادية . واستهلت الرسالة التي سطرت بين ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ بالكلمات التالية :

« نحن الكولخوزيون ، عمال وكادحوا إقليم غاراباغ الجبلي ذو الحكم الذاتي والشعب الأرمني في شامكور وخانلار وطاشكيسان وشاهوميان والمناطق الإدارية التابعة لجمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية ، قررنا بعد أن وصلنا إلى أقصى حدود اليأس نتيجة الاعباء الثقيلة التي نكابدها ونتيجة الظروف المعيشية التي نعانيها أن نناشدكم بأن تشملونا بالحماية وأن تعملوا على إقرار العدالة » .

ويدل محتوى وثيقة أخرى أن طلبات مماثلة كانت قد وجهت بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الحكومة المركزية ، ولكنها لم تلق استجابة أو كانت تواجه بمعارضة عنيفة من الحكومة الأذربيجانية .

« لقد برزت ظروف لم يعد بالوسع القضاء عليها ، فالتمييز واسع الانتشار ويشمل جميع المجالات . إن وضعنا اليوم هو أسوأ مما

كان عـليـه خلال ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ خلال الاحتـلال التركي والبريطاني ، إذ تمارس اليوم الإجراءات القمعية نفسها ولكن تحت شعـار الأخوة والصداقة . لقد كنا قد أبدينا معارضتنا إزاء عدم وجود إقليم ذي حكـم ذاتي في الواقع . وقد بذلنا محاولات عدة لشرح أسباب السخط الشعبي ، إلا أن طرائق المعاملة المستخدمة ضدنا غير مقبولة على الإطلاق » .

ولم تسفر المناشدة عن أية نتيجة عادلة ، بل على العكس من ذلك فقـــد فـــاقمت من حـدة التميـــز المـعـــادي للأرمن واضطهادهم . ولا يعرف أحد بعد ما هو رد خروتشوف على تلك المطالبة . كما أن ثمة وثيقة أخرى تشـير بشكل مباشر إلى موقف خروتشوف في هذا الشـأن . ففي رسالة مؤرخة في عام ١٩٦٥ بعث بهـا شـيوعي يدعى ي . هـ . هوفانيسيـان من يريفـان إلى اللجنة المركزية في موسكو بحثت فيها موضوع الحدود ونقتطف من الرسالة السطور الهامة التالية :

رد ن . خروتشـوف على رســالتي التي كتبت قبل انعقاد المؤتمر العشرين بأن اللجنة المركزية لا يمكنها معالجة هذه المسـألة حالياً ، لكن إلى متى ؟ لعل خروتشوف أعطى رداً للمناشدة التي وقع عليهـا ٢٥٠٠ أرمني . لكنه بعد إرسـال هذه الرسـالة بفترة وجـيزة أقصي خروتشـوف بصـورة مشينـة ، وتلا ذلك فترة من

الركود في الاتحاد السـوفييتي . ولكن الحركة الأرمنيـة الراميـة إلى إعادة تثبيت الحقوق بعد عهد خروتشوف لم تفقد زخمها ، بل على العكس كثفت أنشـطتهـا وكسبت مزيداً من الدعم الشعبي في غاراباغ وارمينيا السوفييتية .

وقد نقـلت عدة دراسـات وصحف أرمنيـة أنبـاء تجدد السخط الشعبي . كما وردت أنباء الحركة في الوثائق التي لم تنشر في أرمينيا ، بل سربت إلى الخارج والتي وصـلت إلى عدد كبير من الأرمن في المهجر .

وفي هذا الشـأن يجدر التنويه بالكلمة التي ألقتها الشـاعرة (سيلفا كابوديكيان) في الاجتماع الحزبي لستة وعشرين مفوضية لمدينة يريفان في نهاية كانون الأول عام ١٩٦٥ . وبالرسـالة التي بعث بهـا ي . هـ . هوفـانيسيـان إلى اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في عام ١٩٦٥ . وتشير الأحداث إلى حصول تطور ملحوظ وخاصـة في عام ١٩٦٧ ، فقد ازداد عدد الأرمن الذين قتلوا سراً على يد الأذربيجانيين ، الأمر الذي أحدث جواً مشحوناً بالغضب والشعور بالإستياء . ووصل التوتر بين الأرمن والسـلطات الأذربيجانية إلى ذروته ، إلى حد أن هذه السلطات أخذت ترسل وحدات عسكرية إلى غاراباغ لضرب حصار على الإقليم وتشجيع إثارة المزيد من الرعب والفظائع . وتم القضاء على

الشخصيـات القيـادية في المنطقـة . إذ اغتيل عدد من المفكرين الأرمن المحليـين بوحشيـة وأرغم كثـيرون آخرون على اللجوء إلى أرمينيا السوفييتية .

وفي غضون تلك الفترة المشحونة بالتوتر ، أرسـل سكان غـاراباغ منـاشـدات كثـيرة إلى شعب وحكومة أرمينيـا واللجنـة المركزية للحزب والسـلطات العامة تطالب فيها بالتدخل ومد يد المسـاعدة . ونتيجة لذلك ، أخذت تبرز قضية غاراباغ والمناطق الأرمنية المجاورة في الوثائق والدراسات التي نشرها المنشقون الذين حافظوا على روح واتجاه الحركة . وفي عام ١٩٧٧ أصبحت الرسالة التي بعث بها الروائي (سيرو خانزاتيان) إلى (ليونيد بريجينيف) سجلاً هاماً ، حيث عبر فيه عن توقعه بإيجاد حل عادل لقضية إقليم غاراباغ الجبلي . لكن شـأن المحاولات السابقة ، فقد بقيت هذه الرسالة دون جواب .

إن تطور الأحداث الآنف الذكر يوحي بأنه يجب دراسة انتفاضة الأرمن في شباط عام ١٩٨٨ من خلال ماضيها المباشر ، أو كنتيجة طبيعية للمقاومة المتواصلة والمناشدات التي لم تحظ بأي رد ، واليأس الذي انتاب الناس والقرار الذي لا يتزعزع بالحفاظ على الروح الوطنيـة والقوميـة . ولا تكتمل المعطيات التي تعكس حقيقة الأجواء التي سـادت في الستينات دون الترو والإمعان في

دراسة الأحداث الحقيقية لعام ١٩٦٦ . فقد قدم السكرتير الأول للجنة المركزية لأرمينيا آنذاك (آندون كوجينيان) وثائق تاريخية كثيرة عن هذه الأحداث في مقال مقتضب نشر في تموز عام ١٩٨٩ من المجلة الشهرية (كارون) .

ويظهر من مقالة كوجين أن الزخم الذي تتسم به الحركة الأرمنية الإقليمية من أجل تقرير المصير وصل إلى ذروته في صيف ١٩٦٦ . وأرسلت في ذلك الوقت مناشدة وقع عليها أكثر من ٤٠ ألف شخص ومناشدة أخرى باسم المفكرين وعمال أرمينيا . وقد أرسلت هذه المناشدات مصحوبة بتقرير تفسيري من زعماء الحزب الشيوعي الأرمني إلى موسكو في شهر تموز ويوضح كوجينيان بالتفصيل موقف القيادة المركزية ، ذاكراً الموالين والمناوئين . إذ يتضح أن بعض كبار المسؤولين كانوا موافقين من صميم قلوبهم على طلب الأرمن ومن بينهم مازوروف ، شلت ، فورونوف ، بودغورني بل حتى بريجنيف نفسه . ولكن بسبب تدخل المسؤولين ذوي النوايا السيئة أعيق تنفيذ الحل الإيجابي المعتمد وألغي في نهاية الأمر القرار نفسه . وكان من بين هؤلاء سوسلوف السيء السمعة الذي لعب دوراً رئيسياً في هذا المجال والذي أثر في نهاية المطاف على بريجينيف المتردد .

وتتسم شهادات كوجينيان بأهمية كبيرة وخاصة فيما يتعلق

بـإماطة اللثـام عن موقف موسكو في المـاضي ومقـارنتـه بنزعاتها الحالية . وهل ثمة مثال أكبر من هذه الشهادات التي كتبت بقلم مسؤول كبير ؟.

كان من الطبيعي أن يؤدي إبقـاء إقـليم غـاراباغ الجبلي والمناطق الأرمنية الأخرى داخل أذربيجان إلى عواقب سلبية جداً بالنسبـة للشعب الأرمني . فلنفـترض حتى لو كان نهج الحكومة الأذربيجانية ودياً تجاه الأرمن (وهو افتراض عبثي) فإن النتائج لن تكون غير ما هي عليه . ففي الواقع كانت الحكومة في باكو تعلن على الملأ عداءها تجاه الأرمن وكانت تنفذ ذلك عن طريق وسائل مختلفة .

ففي المقام الأول ، فإن العداوة واضحة في المجالين السياسي والنفسي . ومن المستحيل لكيان قومي أن يؤدي وظيفته على نحو طبيعي داخل أرضـــه وبالقرب من حكومتـه الوطنيـة (رغم أنها حكومة سوفييتية) إذا كان منفصلاً عنها ، بل وأن يرغم على أن يعتبر نفسه أو يبدو على الأقل بأنه بدون وطن . وطالما أن شطراً من أرمينيا يعتبر جزءاً من أذربيجان فسيكون من الصعب ضم الجزء المسـلوخ إلى الوطن الأم . هذا التصدع المجبر جعل الحياة تسـير سيراً غير طبيعي في المنطقة . وهذا الوضع لا يشبه وضع الأفراد أو الأقليات التي تعيش في بلدان أجنبية ، لأنها عاجلاً أم آجلاً سترغم

على التأقلم مع بيئتها الجديدة وظروفها المحلية كقضية بقاء ودفاع عن الوجود . ولكن أن يحيا المرء في وطنه مرغماً ويعتبر بدون وطن فهو المأساة على جميع الأصعدة . وبسبب السياسة المكشوفة المعادية للأرمن في موسكو كان على الأرمن في الجمهوريات الأجنبية أن يواجهوا هذا المصير المأساوي .

ومما لا شك فيه فإن القمع السياسي يؤدي إلى تفكك عرقي — ديمغرافي واضح . ويجدر بالذكر أن الدراسات الإحصائية وتعداد السكان بشأن التركيب الديمغرافي لما يدعى بالأرمن الأذربيجانيين غير موجود بالشكل الصحيح . إلا أنه مازال من الممكن الاستدلال من البراهين المتوفرة بصورة عشوائية بعض الاستنتاجات المعقولة ، فمن الواضح مثلاً أن سياسة الاضطهاد المنظمة التي مارستها السلطات الأذربيجانية أدت إلى انخفاض عدد الأرمن باستمرار ، في حين ازداد عدد الأذربيجانيين ، الأمر الذي أدى إلى تغير التركيب الديمغرافي للمنطقة .

وقد استخدمت طرائق متعددة ، سواء في السر أو في العلن ، للتدخل في التركيب الديمغرافي للمناطق لكي يصبح في صالح الأذربيجانيين ، إذ نقل عدد من الأذربيجانيين على سبيل المثال للاستيطان في المنطقة ، وفرضت على الأرمن إجراءات غير محتملة لإرغامهم على ترك أراضيهم . كما استأثر الأذربيجانيون

بالمناصب الحساسة ، وأخذوا يتحكمون بروح من الأنانية بمصير السكـان المحليـين وحاجاتهم . كما استولت السـلطات بالقوة على الأراضي الأرمنيـة لمنحها للأذربيجانيين ، رغم أنه كان في حوزة الأرمن مساحات من الأراضي أقل من التي يملكها الأذربيجانيون .

وكانت الأساليب الوحشية التي استخدمت أكثر فعالية في إقليم ناخيتشيفـان ، ويكفي أن نشـير إلى أنه قبل الحرب العالمية الأولى كان عدد السـكـان الأرمن في نـاخيتشيفـان موازياً لعدد السكان الأذربيجانيين . هذا إن لم يشكلوا الأغلبية . وبين عامي ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ أبيـد عدد كبـير من الأرمن على يد الأتراك والأذربيجانيين ، وطرد آخرون ولجأوا إلى البلدان والمناطق المجاورة دون أن يكون لهم الحق في العودة إلى وطنهم . في حين أمكن صهر البـاقين في البيئة خلال العقود التالية . واستناداً إلى إحصـاء عام ١٩٢٦ ، كان عدد السكـان الأرمن في ناخيتشيفان ١١,٣٠٠ نسمة . لكن العدد انخفض إلى ٩,٥١٩ في عام ١٩٥٩ . وإبان تعداد عام ١٩٧٠ أصبح ٥,٨٢٨ كأقلية في الإقليم . هذه الأرقام تشير بشكل يدعو إلى السخرية إلى ما يدعى بـ (الصداقة والأخوة بين الشعوب) .

ومن النـاحيـة الأخرى ، أظهرت الدراسـات السـابقة أن معظم سكان المناطق الإدارية في كارتمان (كانتساك الجبلي) كانوا

من الأرمن (حوالي ٩٠٪) . أما الآن فإن الإحصاءات غامضة ومشوهة بحيث أصبح من المستحيل التعرف على الصورة الديمغرافية الحقيقيـة للمنـاطق . غير أنه يمكن تقدير وجود ١٣٠ ــ ١٤٠ ألف أرمني في المنطقة .

أما إقليم غاراباغ الجبلي ذات الحكم الذاتي فقد كان يقطنها ١٧٦,٠٠٠ نسمـة في عام ١٩١٣ . ٩٥٪ منهـم أرمن . وبنفس النسبة أصبح عدد سكان الإقليم (١٥٧,٨٠٠) في عام ١٩٢٣ وفي عام ١٩٢٦ بلغ ١٢٥,٣٠٠ . إن انخفاض عدد السكان لا يحتـاج إلى مزيد من التـوضـيح . وأصبح عدد السكـان في عام ١٩٧٦ (١٥٧,٢٠٠) . منهـــــم ٨٠,٥٪ أرمن ، ١٨,١٪ أذربيجانيون و ٠,٩٪ روس . ولم تنشر نتائج إحصاء عام ١٩٧٩ الأمر الذي جعل محاولات التحليل الديمغرافي أمراً مستحيلاً .

إن هذه الأرقام تبـين بجلاء معدل نمو الشعب الأرمني في إقليم غاراباغ الجبلي . بل إنها تشير إلى ممارسة إبادة السكان ، ومن غير المعقول في ظل هذه الظروف أن يكون الأرمن مغتبطـين أو قانعين بحياتهم ، ومن هنا يكتسب ثأرهم وثورتهم الشرعية .

أضف إلى ذلك ، إذا ما سلمنا بأن التقارير الرسمية تصنف العناصر المكونة للسكان حسب الترتيب التالي :
أذربيجانيون ــ روس ــ أرمن ، وأن المنطقة يقطنها ممثلون من ٤٩

قومية . فليس من الصعب فهم ماهية السياسات المتبعة من قبل مَنْ ولأي غرض .

وتتم سياسة التفكك العرقي في الإقليم باستخدام وسائل عديدة منها اقتصادية . إذ تتعمد المؤسسات الصناعية مثلاً عدم توظيف السكان المحليين ، بل تعمل على استقدام السكان الأجانب إلى الإقليم ، في محاولة منها لتغيير التوازن السكاني . ولا تقدم فرص عمل كافية للأرمن . وهذا يؤدي إلى نزوح الكثير منهم للحصول على فرص عمل أفضل في أرمينيا أو روسيا وباكو ومناطق أخرى . كما أن إهمال الخدمات العامة مثل شق الطرق وعدم كفاية وسائل الاتصال والانعزال عن العالم الخارجي ، أرغم الكثيرين على مغادرة وطنهم . وخلاصة القول فإن الحياة الاقتصادية في الإقليم لا تهدف إلى إفادة الأرمن بل إلحاق الضرر بهم .

كذلك فقد أُصيبت الحياة الثقافية في إقليم غارابا غ الجبلي وفي مناطق أرمنية مبعثرة أخرى بضرر شديد . فعلى الرغم من وجود المدارس والنوادي والمسارح والهيئات الثقافية والصحف المحلية ، فهي محرومة من فرص التطور ومن حرية التعبير والإنتاج الجيد . ونظراً لأنها شبه مشلولة ومنعزلة ، فقد كانت نشاطاتها تواجه عواقب تتمثل في عدم الاطلاع على مجريات الحياة الثقافية في أرمينيا ، وعلى سبيل المثال

فسكان غاراباغ محرومون من الاحتفال بالأعياد الثقافية التي تُحتفل بها في أرمينيـا ، وليس بوسعهـم أن يعتبروا الإنجازات الاجتماعية ـــ الثقافية في أرمينيا على أنها إنجازاتهم هم أيضاً في العلن ...الخ .

ولا توجد في إقـليم غـاراباـغ الجبـلي مطبوعات شهرية أو درويـــة ، رغـم أن مثـــل هذه المطبـوعـات كانت موجودة منـذ العشرينات من هذا القرن ، ورغم وجود فرع محلي لاتحاد الكتاب الأذربيجـانيـين فـإن المجـلة الأرمنيـة الوحيدة في الجمهورية هي (أذربيجـان الأدبيـة) الصـــادرة كل شـهرين في باكو ، وتملأ صفحـاتها ترجمات عن مؤلفـين أذربيجانيين وذلك لوجود حظر مفروض على الكتّاب الأرمن . ويتمتع غاراباغ بتاريخ حافل ، إلا أن الجهـود الراميـة إلى البحث والكتـابة ضعيفـة ، نظراً لغيـاب المؤسسات العلمية ذات الصلة بالموضوع . ولا توجد دور نشر في غاراباغ لذا لا يمكن طباعة كتاب أرمني هناك ، وبدلاً من ذلك إما أن يصدر الكتاب في باكو أو يريفان باسلوب مضطرب .

ومن الغرابة بمكان أنه لا يسمح للأرمن في غاراباغ إجراء أبحاث أو دراسات عن تاريخهم وتراثهم الثقافي . كذلك في أرمينيا . فقد لاقى الإقليم إهمالاً لبعض الوقت بسبب فرض الرقابة والضغط من السلطات العليا . علاوة على ذلك فقد بدأت منذ الخمسينات

جهود دائبة في أذربيجان تهدف إلى تشويه وتزوير تاريخ الإقليم . وقد منح الكتّاب الأذربيجانيون أنفسهم الحق في كتابة ما يحلو لهم عن حـاضر ومـاضي الإقـليم . فهـم لم يحرفوا التـاريخ الحديث فحسب ، بل وحرفوا كذلك وبشـدَّة الشواهد التاريخية القديمة . وفي الواقع فإن الأذربيجانيين ينتمون إلى القبائل البدوية التي بدأت تفد إلى الإقليم منذ القرن الحاي عشر ، ولكنهم يدعون أنهم من سلالة الأغفان القدماء . لذا فإنهم يدعون أنهم الورثة الشرعيون للأراضي ، ويزعمون أن الأرمن قدموا بعدهم ، بل ويزعمون أنهم (أي سكان الإقليم الأرمن) ليسوا أرمن بل هم من الأغفان الذين أصبحوا أرمن بالقوة . إن هذه الجرأة المثيرة للسخرية تشبه محاولات الأتراك المعـاصرين في آسـيـا الصغرى ، الذين يهزأون بالمؤرخين المعاصرين ويصّرون بوقاحة على أنهم الأسلاف المباشرون للحثيين والأورارتيين والآخرين . وهكذا نرى أنه حتى تاريخ وثقافة غاراباغ قد انتهكت على يد الأذربيجـانيـين بدعم من إدارتهم السيـاسية (الشـرعيـة) ، والامتيـاز الذي اكتسبـوه من جراء هيمنتهـم الاستعمارية .

وبطبيعة الحال لم يأت رد فعل الأرمن متأخراً . ففي عام ١٩٦٦ صـدر بحث بعنـوان (حول القضـايا الأدبيـة في عالم الأغفـان) بقـلم العـالم الأرمني (أصـادور منـاتسـاكانيـان) في

يريفان . ويكشف الكتاب برمته وبسهولة حاذقة المحاولات العابثة التي قام بها الأذربيجانيون . وفي عام ١٩٦٩ صدرت النسخة الروسية من الكتاب . وبعد صدور هذا الكتاب الهام صدر عدد كبير من المقالات والدراسات في محاولة لإثبات صحة تاريخ غاراباغ والذي يشار إليه غالباً بـ (عالم أرتساخ) . وقد قام عالم شهير من مواطني غاراباغ يدعى (باكراد أولوبابيان) بإجراء بحث مُستفيض عن تاريخ وطنه . وكان أحد أبحاثه الهامة « مقاطعة لاتشين بين القرنين العاشر والخامس عشر » ونشر في عام ١٩٧٥ . ودرس (شاهين مكردجيان) تراث وآثار الأرمن الثقافية في غاراباغ . وصدرت دراسات في كتب عديدة حول هذا الموضوع . كما قام العالم الشهير (أرغام أيوازيان) بجمع دراسة مماثلة عن التراث الثقافي في ناخيتشيفان . وتوضح جميع هذه الدراسات والمنشورات والوثائق مرة أخرى وبجلاء ، أنه يوجد لدى الأرمن أمور يودون عرضها عن تاريخ وثقافة غاراباغ والمناطق الأرمنية المجاورة وبصورة أفضل من الآخرين ولاسيما الأذربيجانيين الحاليين . وصحيح أن سلسلة من القرارات غير العادلة أخذت تصدر منذ عام ١٩٢١ عملت على ضم هذه المناطق إلى جمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية بصورة اعتباطية ، إلا أن التراث الثقافي الذي تراكم عبر القرون بالإضافة إلى تاريخ هذه المناطق هو أرمني فقط .

وهكذا فإن دراسة شاملة للظروف المعيشية للشعب الأرمني في غاراباغ ومناطق أخرى مبعثرة ، تكشف عن عدم إدخال تحسين في أي مجال من مجالات الحياة خلال السبعين عاماً ، بل على العكس من ذلك ، فإن هذه الفترة تدل على وجود تراجع . وبعبارة أخرى كان الانحطاط هو الظاهرة السائدة خلال القرون الأخيرة . وقد أُخضع الأرمن مرة أخرى داخل وطنهم للهيمنة الأجنبية وتعرضوا لمخاطر الأجراءات القمعية ، بل وحتى المجازر . لذلك فإن المستقبل المتوقع يبدو كئيباً ومظلماً .

لهذه الأسباب ، لم تكن انتفاضة شهر شباط ١٩٨٨ غير متوقعة . لقد كانت في حقيقة الأمر حركة انبعاث حفزتها العوامل الظاهرة والباطنة الناجمة عن التطورات التاريخية . وقد دعمها القرار الثابت الذي يقضي بإصلاح أخطاء الاغتصاب التي يقوم عليها الوضع الحالي .

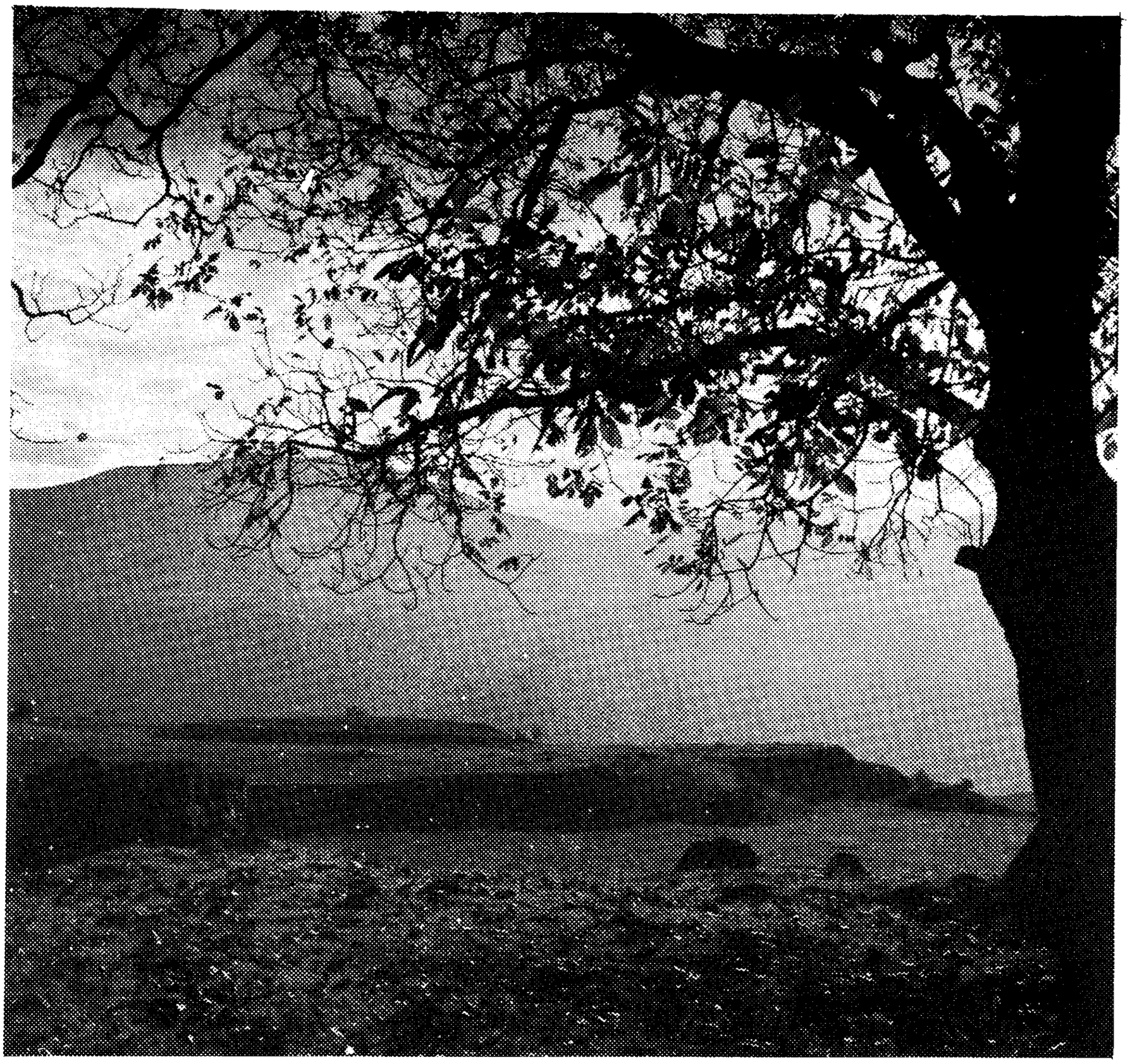

الشروق في سهول مارتاكيرد

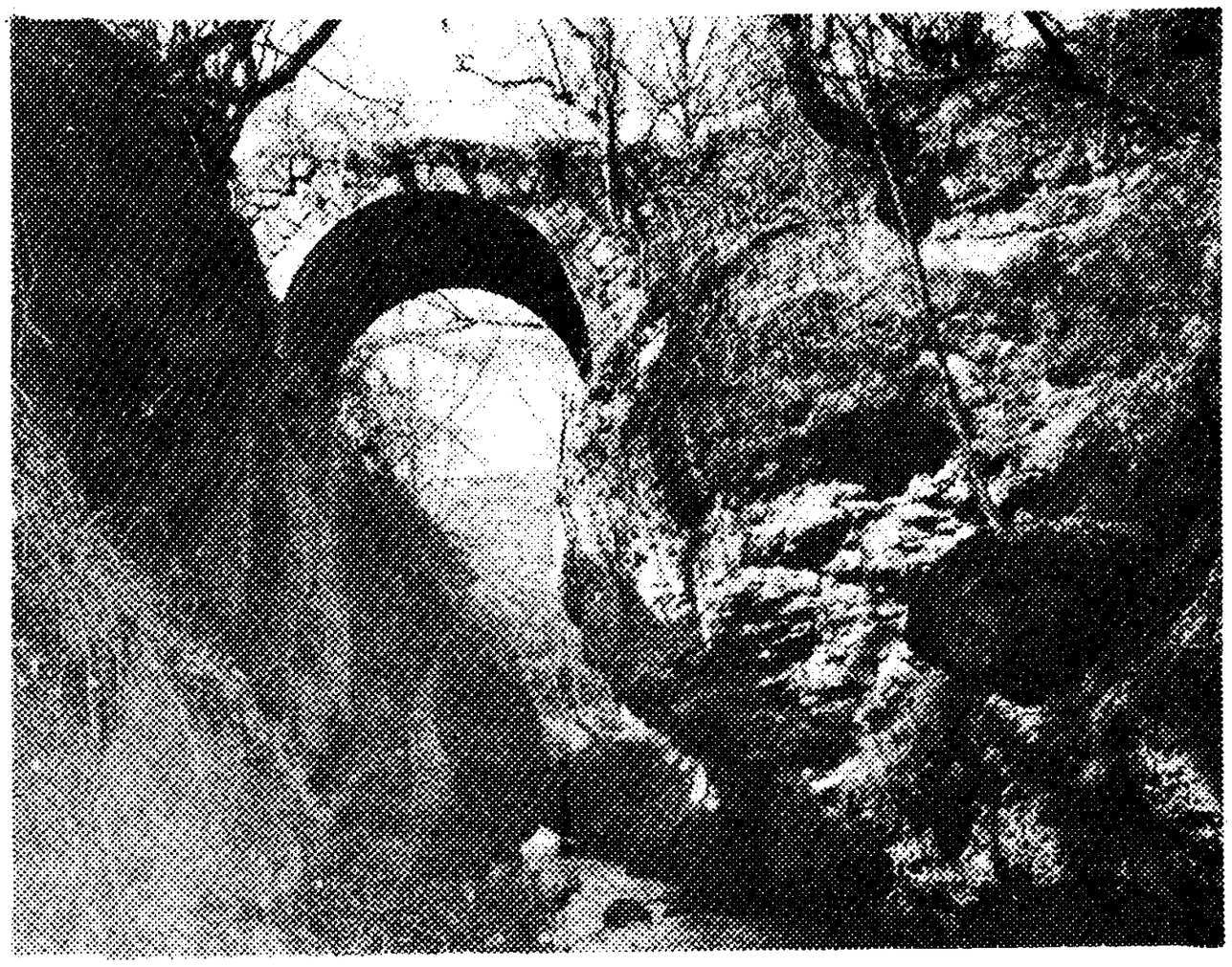

جسران قديمان مختلفان في شكلهم المعماري في الأعلى جسر على نهر أرتيناجور في منطقة شاهوميان (من القرن ١٦ ــ ١٧) . وفي الأسفل نهر بوكر كوارك في منطقة واشكاسان (من القرن ١٧ ــ ١٨) .

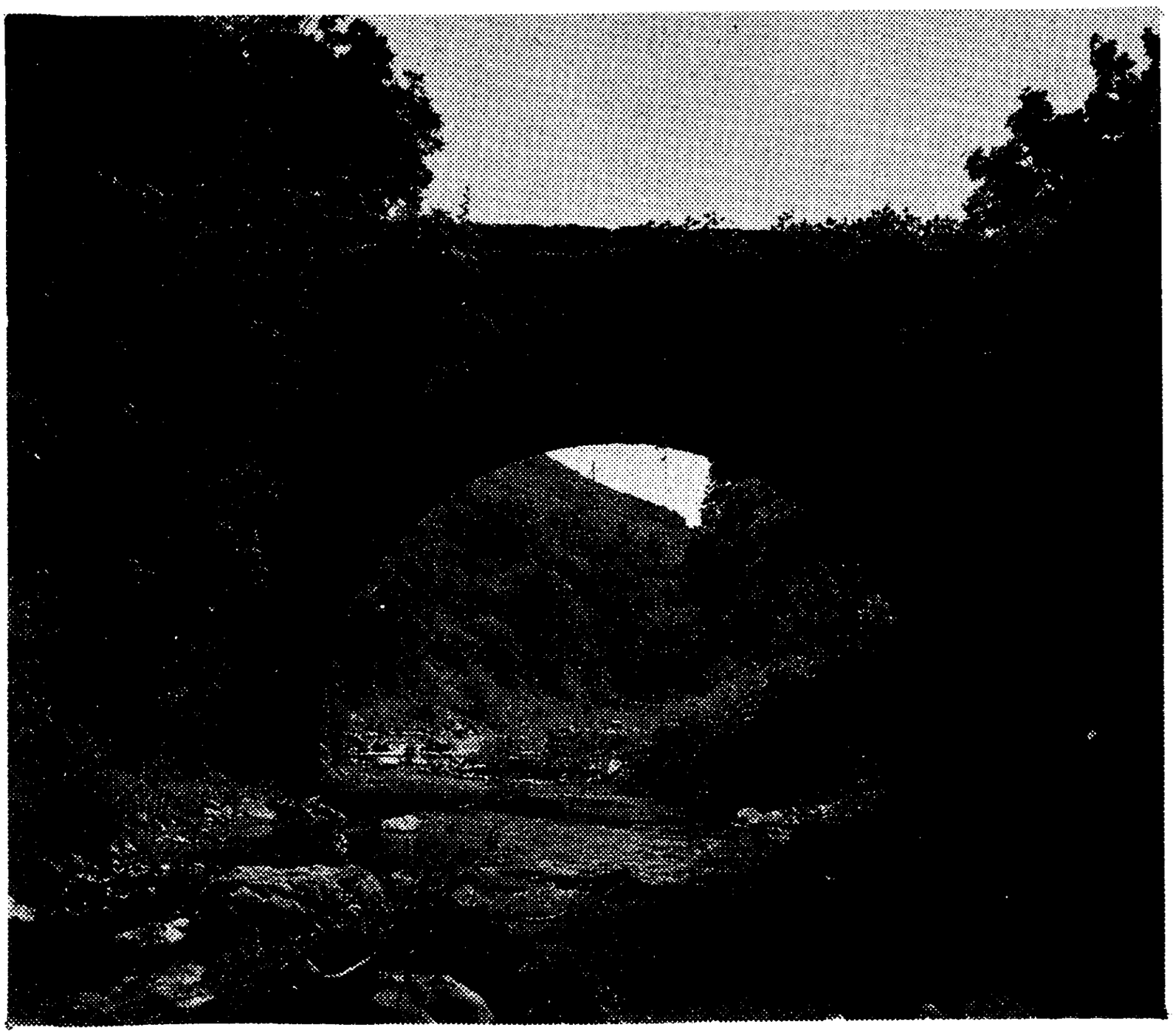

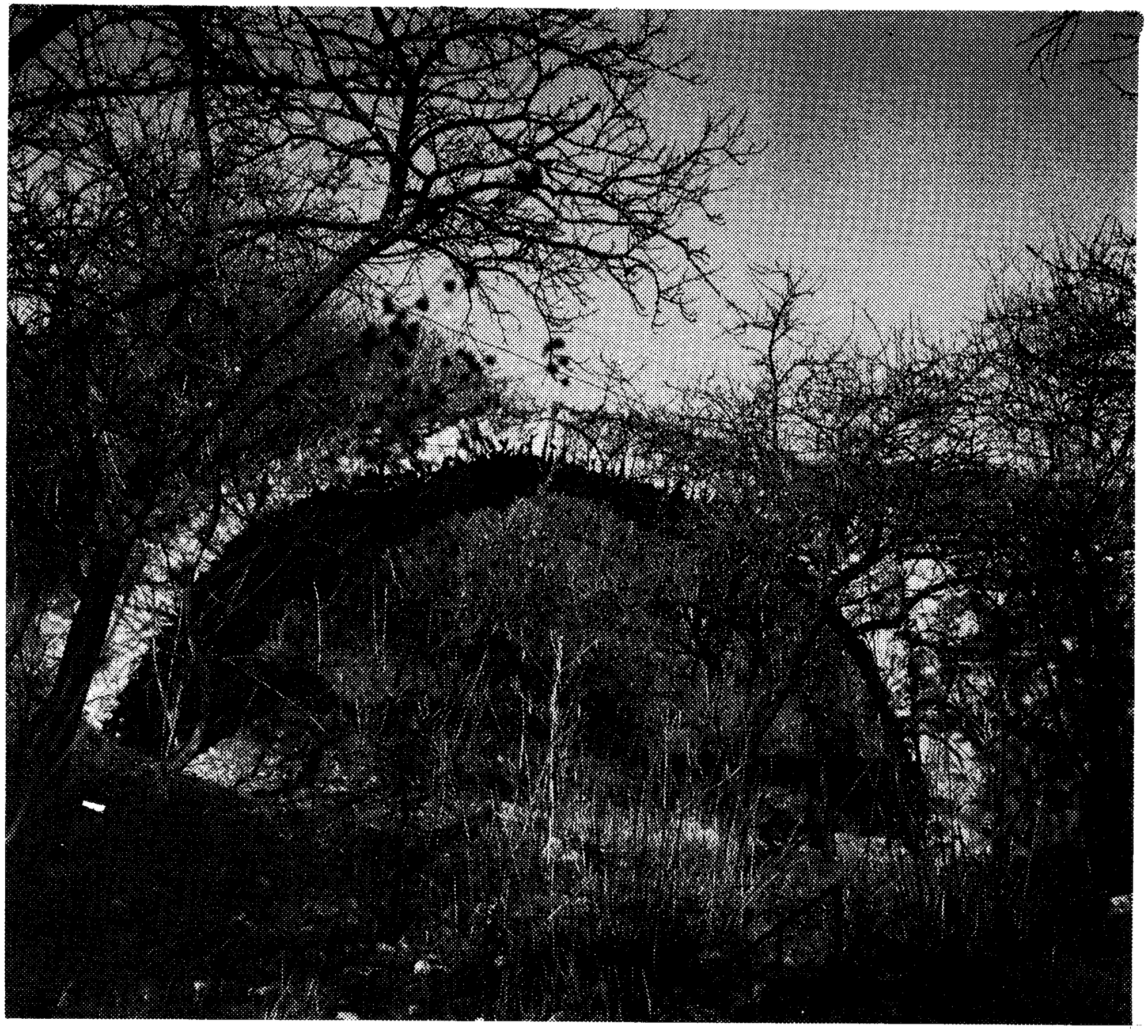

جسر على نهر سيف جور في منطقة داشكاسان (من القرن ١٧ ــ ١٨) .

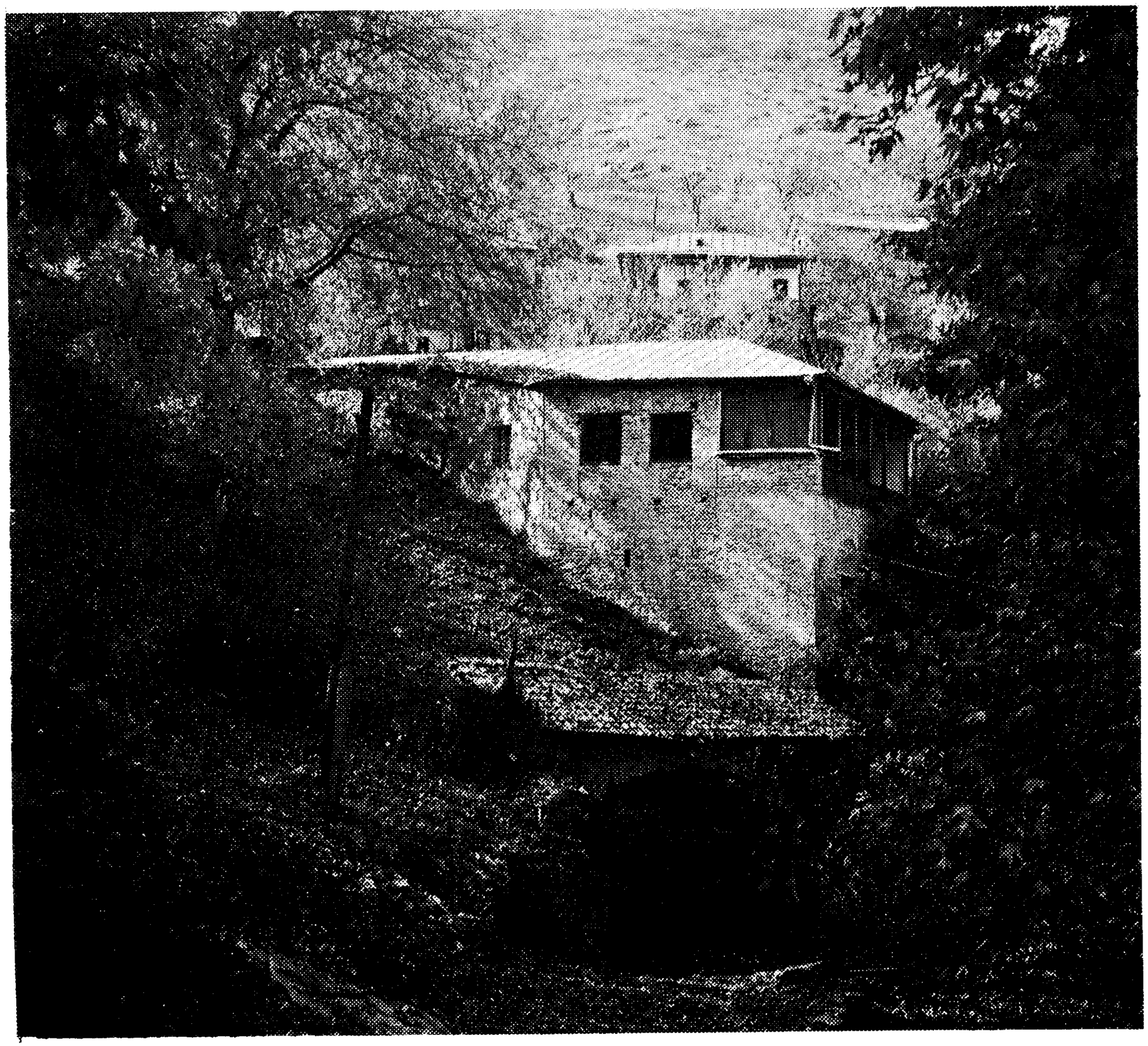

منزل بالونتس ماخان من الشمال الشرقي وفي الأسفل نبع القريّة .

منظر طبيعي من قرية تاك .

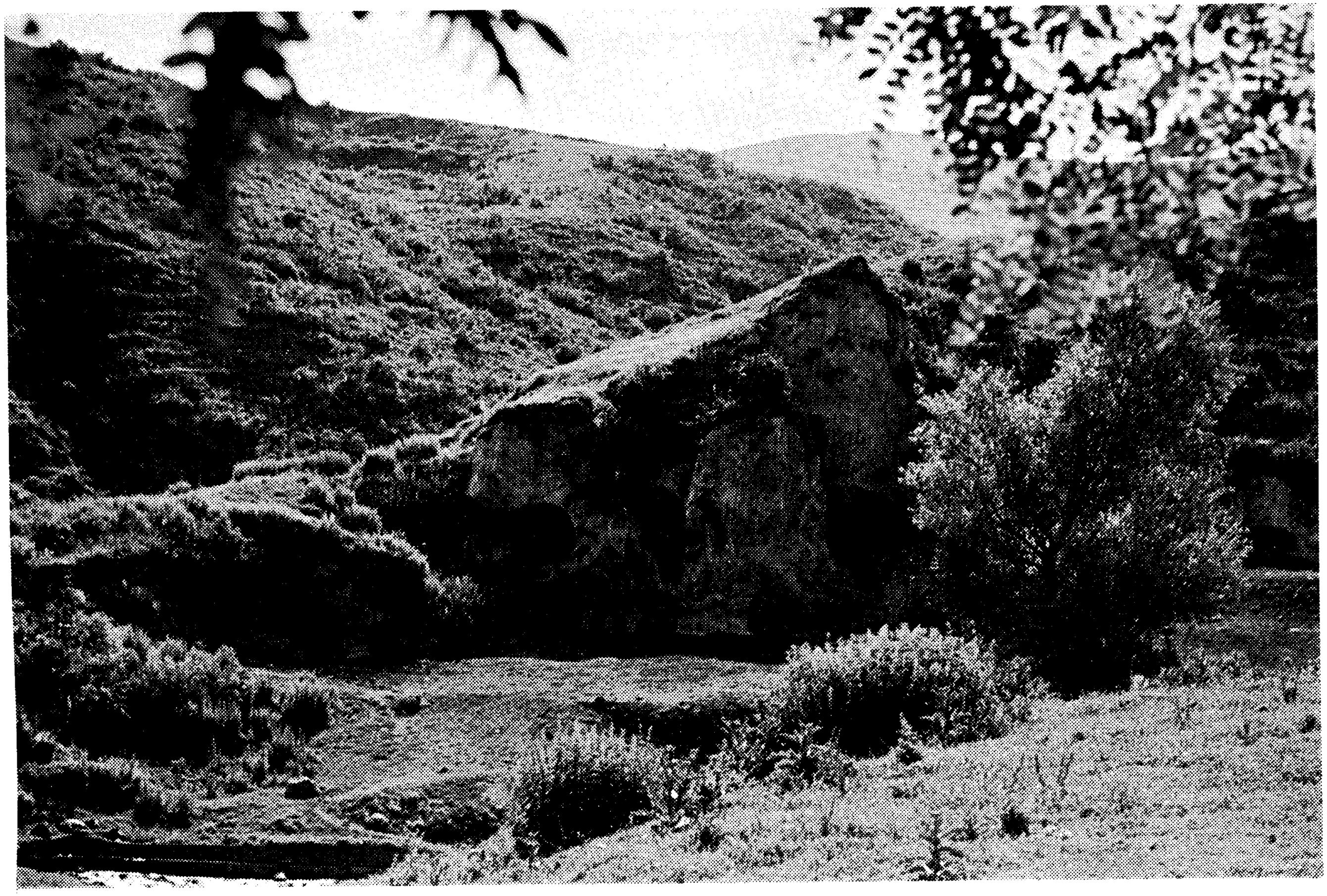

معبد قديم محفور في الصخور وبيوت في الكهوف على الطريق المؤدي
إلى غارابا غ الجبلية قرب الحدود الأذربيجانية .

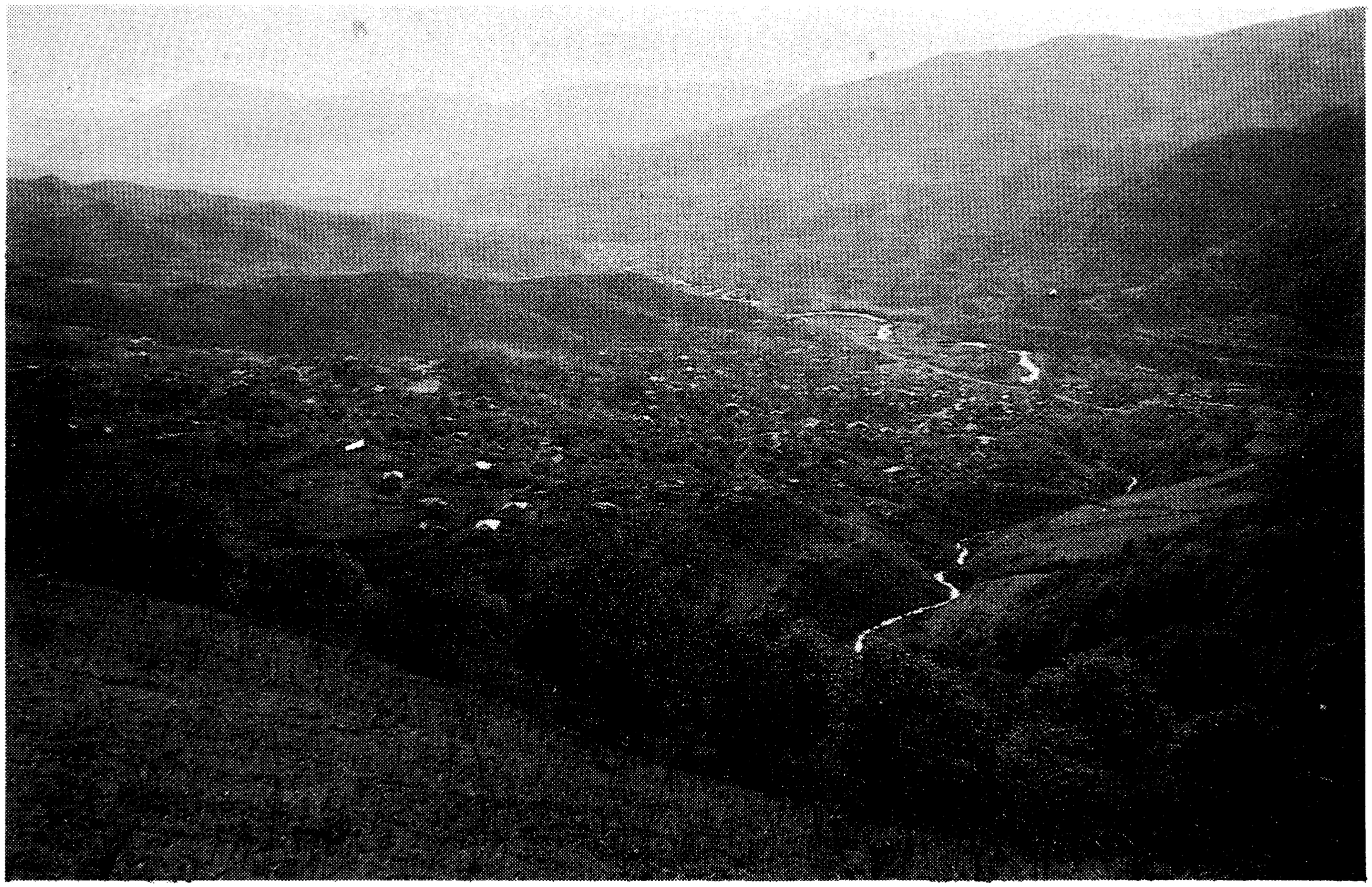

منظر جبلي عام المنطقة هادرون .

منظر طبيعي من منطقة مارداكيرت .

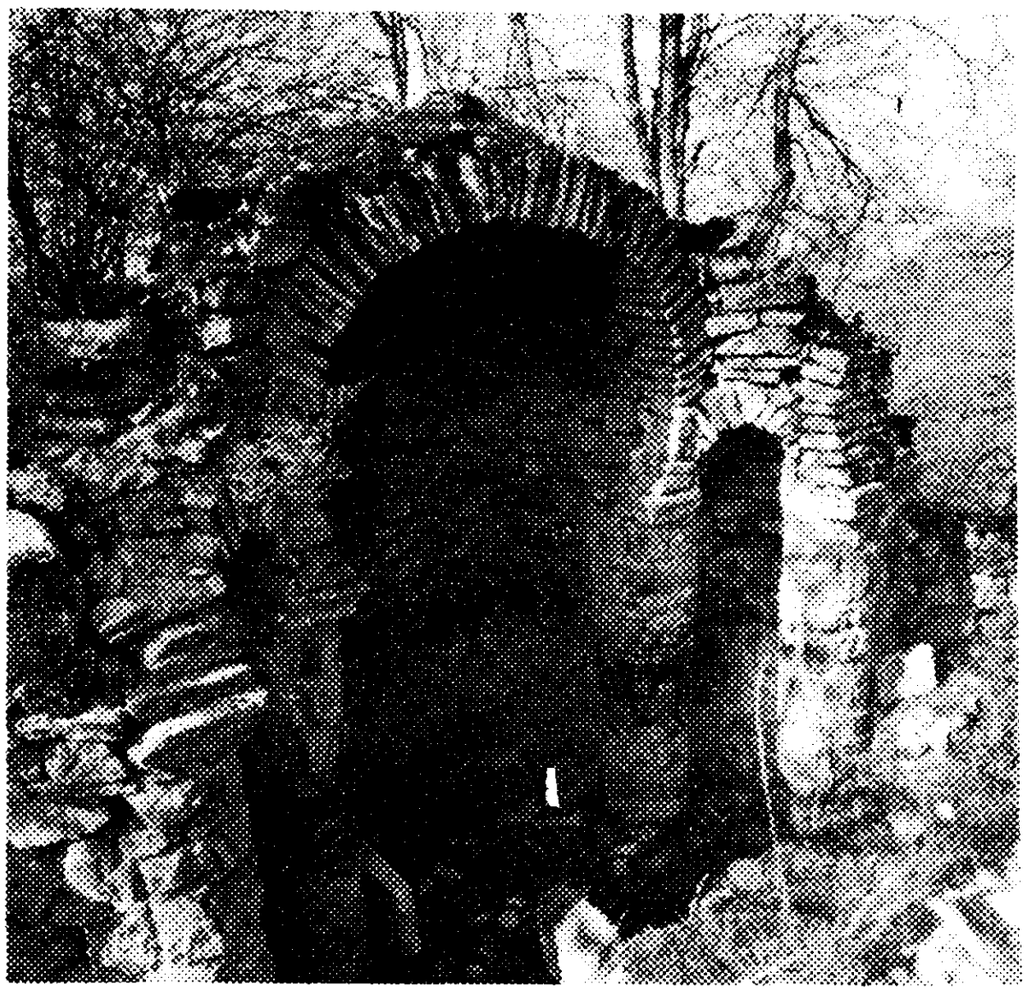

اطلال كنيسة قديمة من يدو أوخدي ديرن (القرن ٦ ــ ٧ م) .

كنيسة فارازكوم في منطقة لاجين ، كما كانت قبل تهديمها (القرن ٩ ــ ١٠ م) .

نصب بشكل حصان على مدفن في مقبرة قرية باردا ـــ منطقة شاخور (القرن ١٩) .

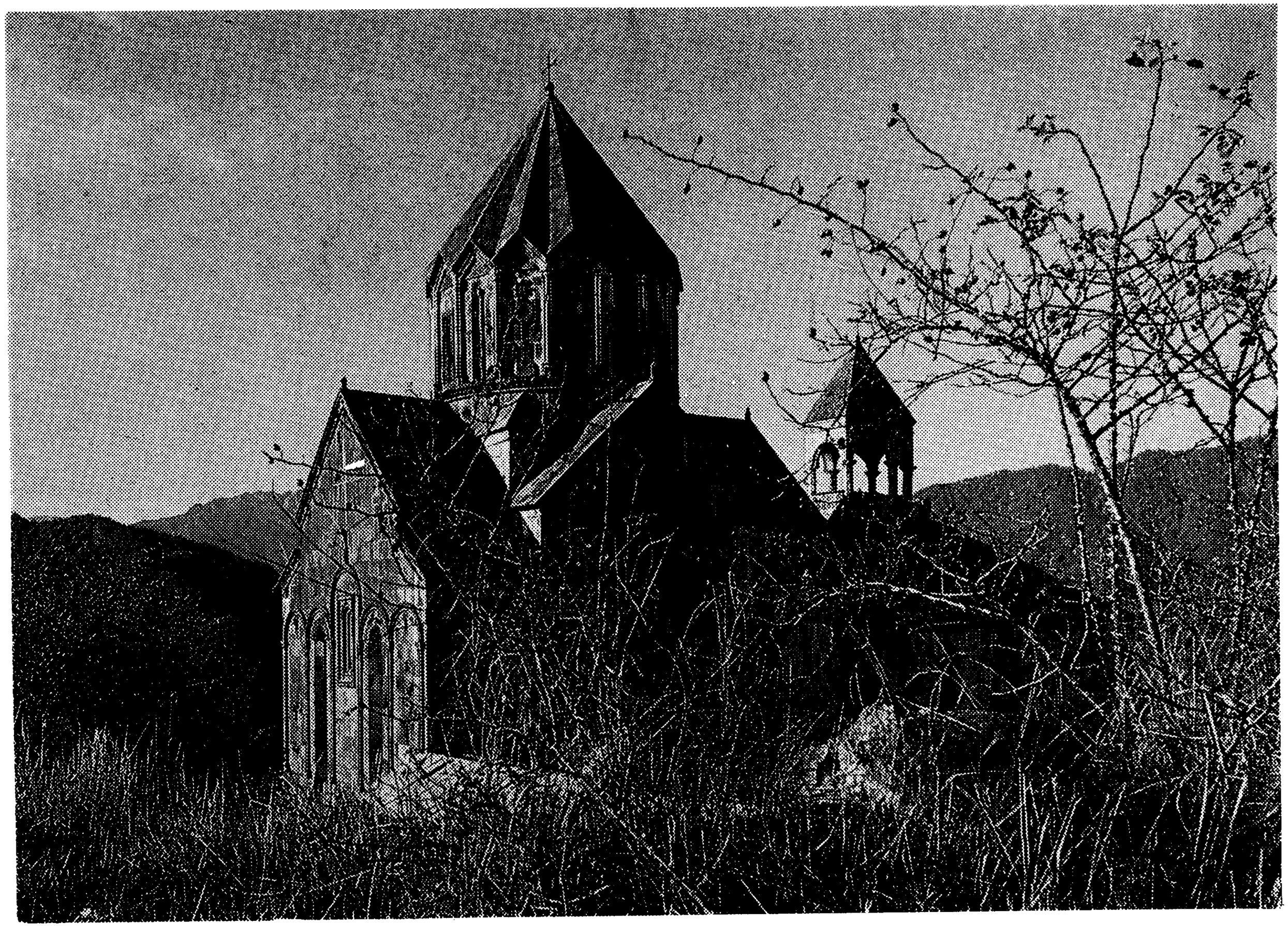

دير كانتساتسار من الناحية الشمالية الشرقية (القرن ١٣) .